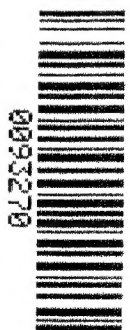


سلسلة اعلام الفكر العالي



الزواك



ترجمته دوتامدثر الرابعي

تأليف فيليب بروتو

بِلْزَاكْ

سلسلة أعلام الفكر العالمي

بلزاك

تأليف فيليب برتو
ترجمة دونا مدثر الرافي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الخبز
ت : ٣١٢١٥٦ - بركياً ، موكالي ، بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

جميع الحقوق محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الأولى * ١٩٧٩

نبذة عن حياته

إرتبطت حياة بلزاك بتناجه ، لذا يتوجب علينا خلال هذه الدراسة أن نظهر بعض الاحداث لنوضح أصل ومسيرة «الكوميديا الانسانية» .

تعدد هذه النبذة بعض الأحداث الواجب الاطلاع عليها لمعرفة طباع المؤلف ومتابعة حركة سير قدره .

ولد هونوري دو بلزاك (Honoré de Balzac) في مدينة تور (Tours) الفرنسية في ٢٠ أيار ١٧٩٩ وترعرع هو وأخته لور (Laure) لدى مربية في إحدى الضواحي في سان سير (Saint Cyr) . وقبل ان يبلغ الخامسة بدأ بارتياذ مدرسة لوجاي (Leguay) في تور . وفي الفترة الممتدة بين ٢٢ حزيران ١٨٠٧ ، ٢٥ نيسان ١٨١٣ تلقى علومه في ثانوية فاندوم الداخلية التي كان يديرها رجلا دين تدينا إثر وقوع الثورة . وخلال هذه السنوات الست لم يزر بلزاك المنزل العائلي ، كذلك لم ير والدته إلا مرة واحدة .

وقد عرف وتحسس الحماس الصوفي خلال تناوله القربان العام ١٨١٤ انتقل أهله إلى باريس . حيث تابع هونوري دراسته أولاً في مدرسة الملكي لويتر (Lepitre) ، ثم في معهد سانزيه (Sanzer) وبوزولان (Beuzelin) .

في الفترة الممتدة بين ١٨١٦ ، ١٨١٩ درس القانون ثم تدرب لدى المحامي الاستاذ جيونييه دو مورفيل (Guillonnet de Merville) . ثم انتقل للعمل لدى كاتب العدل الاستاذ باسيه (Passez) ، وتابع في نفس الوقت دراسة الآداب في السوربون .

العام ١٨١٩ اعتزل في سقيفة في شارع لوديفيا ، (Les diguières) . وتدرج في الاعمال الادبية لكن دون تحقيق أي نجاح .

العام ١٨٢٠ عاد إلى المنزل العائلي الذي انتقل إلى مدينة فيل برسيس (ville-parsis) . وأقام فيه بصورة متقطعة لان عائلته كانت قد اتخذت لها منزلاً مؤقتاً في باريس . العام ١٨٢٢ هام حباً بالسيدة دو برني (De Berny) المولودة لوزير انطوانيت لورهينر (Louise Antoinette Laure Hinner) ابنة احد عازفي القيثارة لدى الملكة ماري انطوانيت (عرابتها) . فقد كانت عائلة دو برني تقضي فصل الصيف في فيل برسيس .

كانت السيدة دو برني تكبر هونوري باثني وعشرين عاماً . ولكن هذا لم يمنعها من أن تكون صديقة له لا مثيل لها ، فكان لها تأثير

عميق على تكوينه الاخلاقي والادبي. كما برهنت له عن اخلاص كبير، وحب لا حدود له حتى واقتها المنية في ٢٧ تموز ١٨٣٦. لقد احاطت صديقها بحنو كبير. ولولا نصائح هذه المحبة، لاختلف نتاج بلزك العصي الطبع.

في الفترة الممتدة ما بين ١٨٢١، ١٨٢٤ ساهم مع مجموعة من رفاقه بكتابة روايات تحت اسماء مستعارة جمعت ونشرت باسم مؤلفات اوراس دوسان اولان الكـاملـة (Horrace de Saint Aulin) .

العام ١٨١٩ يرتبط بصداقة نبيلة مع إحدى رفيقات اخته لور في المدرسة: زلما تورلجان (Zulma Tourangin) المتروجة من أمر المدفعية كارو (Carraud). وقد كان لهذه السيدة العاقلة والفاضلة تأثير كبير علي الكاتب الذي كان غالباً ما يحل ضيفاً على العائلة في مصنع بارود المجولام (Angoulême) ثم في فرايل (Frapesles) ثم قرب اسودان (Issoudun) .

والفترة الممتدة ما بين ١٨٢٥-١٨٢٧ تمثل مرحلة الحصول على الثروة من خلال الاعمال: ناشر ثم طابع فؤسس مطبعة ولكنه لا يلبث ان يغرم بقضية قضائية تؤدي إلى افلاس عائلته وتترك آثارها عليه طوال حياته. ثم يعود إلى الادب. وفي هذه الفترة أقام علاقة بالدوقه داربانسس (D'Arbantès) وساهم في اعداد مذكراتها.

العام ١٨٢٩ توفي المنية والد بلزك... تحقق له قصة «الثوار الملكيون» التي ألفها في فوجير (Fougères) بعض الشهرة. خلاف مع لاتوش. نجاح صاحب لـ «فيزيولوجية الزواج».

العام ١٨٣٠ بدأ بلزك بالكتابة في عدة صحف، وبأشهر بالظهور في عدة مجالس منها مجالس الأميرة باجراسيون (Bagration) والكونتيسة ميرلين (Merlin) والبارون جيرار (Gerard) وصوفي جي (Sophie Gay) وركاميه (Récamière) ولدى أولب بليسيه Olympe Pelissier وهي نصف سيدة مجتمع. وواتته الشهرة مع مشاهد من الحياة الخاصة. قضى مع «الحبة» الفترة الممتدة بين حزيران وايلول في غريناديير (Grenadière) وسان سير (Saint Cyr) قرب مدينة تور. واجتازا معاً نهر لوار في مركب بخاري وبلغا سانت نازير (Saint Nazaire) ليعودا إلى كروازيك (Croisic).

العام ١٨٣١ تلاقي «غشاء الكتابة» التي تظهر في شهر آب نجاحاً كبيراً. ولوج التأتق الذي سيبلغ حده الأقصى عام ١٨٣٢. جنون الترف، زينة ومفروشات لتجديد منزل شارع كاسيني وتوسيعه. نفقات طائلة متنوعة، حصانان، تلبرية (مركبة خفيفة ذات عجلتين باسم صانعها)، خدام باللباس الخاص، مقصورة في الاوبرا، لباس انيق يعده الخياط المشهور بويسون (Buisson) الذي يُمثل في «الكوميديا الانسانية». غالباً ما كان بلزك يعمل خلال الليل ويكثر من شرب القهوة، متدثراً بثوب راهب ذي برنس من الكشمير الأبيض: وقد بقي اميناً لهذه العادة.

العام ١٨٣٢ بدأت المطامح السياسية بالظهور... فشل في خوض الانتخابات النيابية، كذلك لاقت مشاريع الزواج الخيبة. الانضمام الرسمي إلى حزب الشرعية الحديد الذي يقوده كل من الدوق فيتر جامس (Fitz James) ولورانتى (Laurentie)... وتظهر «الامبراطورة الجميلة» في الجزء الأول من القصص المضحكة فتثير انشراح البعض واستنكار البعض الآخر. وكان بلزك قد أخذ منذ عدة أشهر بالمركيزة الجميلة دو كاستري (de Castries) ابنة اخ الدوق فيتر جامس، ويلحق بها في آب إلى إيكس لي بين Aix les bains ويرافقها إلى جنيف، نهاية الحلم الجميل في بداية تشرين الأول. وتكون «الدوقة دو لانجيه» (١٨٣٣ - ١٨٣٤) (La duchesse de Langeais) انتقام العاشق الذي تجذبه فتاة مغناج، و«طبيب الريف» (١٨٣٣) انبحث عن عزاء. في ٢٨ شباط تصل الرسالة الأولى المجهولة التوقيع من الغريبة البولونية. الأميرة المجهولة.

العام ١٨٣٣ تستمر «الغريبة» في كتابة تصريحات الاعجاب المرتعشة ويرد عليها مطولاً متحمساً مندفعاً خلف هذا الحب الجديد والجميل. يرتاد بلزك عدة مجالس ارستوقراطية. وتظهر «اجيني غراندي» Eugénie Grandet مؤلف بلزك الكلاسيكي الأول. وفي ٢٥ أيلول يتم اللقاء الاول بين بلزك و«الغريبة» الكونتيسة إيفلين هانسكا (Evelyne Hanska) في سويسرا في نيو شاتل. ويقضي بلزك خمسة أيام بقربها مع زوجها. لقاء جديد بين العاشقين في جنيف من عيد الميلاد ١٨٣٣ حتى ٨ شباط ١٨٣٤.

العام ١٨٣٤ ، عام من العمل «الحائق» ، «المفرط» دون
 التخلي عن الحياة الاجتماعية والترف. في ٢٣ آذار سمح بللزاك
 بتقديم احتراماته للكونتيسة أبوني (Apponyi) زوجة سفير النمسا.
 في ٨ أيار شارك في حضور سهرة لدى السفارة التي قدمته بعد عدة
 أيام إلى الكونتيسة جيـــــدو بوني فيسكونتي
 (Guidoboni Visconti) المولودة سارة لوثيـــــل
 (Sarah Lovell) وهي متهكة شقراء. وقد تبع هذا التعارف إقامة
 علاقة ... فشل «طبيب الريف» بالفوز بجائزة مونتيون (Monthyon)
 التي فضلت الاكاديمية اعطاءها إلى السيدة مؤلفة «الاحدب
 الصغير» ، «عائلة القباقيب» (صانع القباقيب) ،
 في آب ١٨٤٣ أوصي بللزاك على العصا المشهورة
 ذات القبضة الذهبية المرصعة بالزمرد... تنظيم حفل عشاء ضخم
 على شرف اولب بليسيه (Olympe Pélissier) وعشيقها في ذلك
 الحين روسيني (Rossini) ونوديه (Nodier) وساندو
 (Sandeau). وقد آوى بلزاك ساندو في منزله في شارع كاسيني
 بعد ان تخلت عنه جورج صاند (George Sand) واتخذة مساعداً له .
 كذلك اتخذ ادمون فيرده (Edmond Werdet) ناشراً له رغم اعتاده
 ستة آخرين. في نهاية أبلول وحتى منتصف تشرين الأول قضى فترة
 استجمام في ساشيه (Saché) لدى السيد مارغون (de Margonne)
 للانكباب على «ساروفيم الملاك الطاهر» (Seraphita) ، «الأب
 غوريو» (le père Goriot) .

وفما خص حياته الاجتماعية فهو يداوم على ارتياد الاوبرا .
ويظهر كتاب « البحث عن المطلق » وكتاب « الاب غوريو » . وتعتبر
هذه الرواية قمة عطاء العبقرية حيث تطبق لأول مرة عودة الاشخاص
المنهجية .

في ربيع عام ١٨٣٥ أقام بلزاك في شارع باتاي (Batailles)
في شايلو (Chaillot) في منزل سري استأجره تحت اسم الارملة
دوران (la veuve Durand) لانه يريد التهرب من الدائنين
وتجنب السجن في أوتيل دي زار يكو (Hôtel des Haricots)
لامتناعه عن الالتحاق بالحرس الوطني ولرغبته أخيراً باستقبال
الكونتيسة جيدوبوني- فيسكونتي (Guidoboni Visconti) دون
رقب . وبدأ بالعمل في منزله باطمئنان ودون خوف من المتطفلين .
وعني باعداد صالون صغير فخم وصفه في « الفتاة ذات العيون
الذهبية » وكانت الندرة من اصدقائه تستعمل كلمات سرية مثل «آن
موسم الخوخ» للوصول اليه . وكان يعمل ليل نهار وينكب على عمله
احياناً ست عشرة ساعة متواصلة . ثم لا يلبث ان يعلن عن رغبته في
تأجير منزله القائم في شارع كاسيني إلا انه بقي فيه طاهيه وساندو .

في ٩ ايار يرحل بلزاك إلى فينا حيث التقى السيدة هانسكا
(Hanska) وزوجها . في ٢٠ ايار قابل مترنخ . وعاد في بداية
حزيران إلى باريس . وقد أثار له أخوه هنري بعد عودته من جزيرة
موريس المتاعب . قام برحلة إلى بولونيير (Bouleauunière) لزيارة

« المحبة » التي تعاني من انتفاخ في شرايين القلب . في شهري تشرين
وكانون ظهر كتاب زنبق في الوادي على حلقات في مجلة باريس
(Revue de Paris) . واقام بلزك حفل غداء على شرف
سكرتيره دوبلوا ، غرامون ونيان .

العام ١٨٣٦ اشترى بلزك مجلة « وقائع باريس » لتثير له الكثير
من المتاعب الفكرية والمشاكل المالية . في شهر تموز تبادل بلزك
الرسائل مع سيدة مجهولة وهي لوز التي لا يتمكن من لقاءها أبداً . قام
برحلته القلقة الأولى إلى ايطاليا للدفاع عن حقوق جيدوبوني فيسكونتي
في الحصول على تركة . يرافق بلزك في رحلته غلام صغير يدعى
« مارسيل » وهو في الحقيقة امرأة شابة متكرة بزي فارس وهي
(السيدة كارولين ماريوتي) Caroline Marbouty . واقام الصديقان
في تورين (Turin) حيث تحتفي به الطبقة المخملية . يعلم بلزك عند
عودته من رحلته بوفاة السيدة دوبرني « المحبة » . قام الرسام لويس
بولونجييه Louis Boulanger برسم بلزك بثوبه الأبيض . فيقوم هذا
الاخير بارسالها عام ١٨٣٧ إلى عائلة هانسكي في قصر ويزر شونيسا
(Wierzchownia) . في نهاية شهر تشرين الثاني قام برحلة لمدة
عشرة أيام الى ساشيه لزيارة السيد دو مارغون (de Margonne) .
ثم زار الدوقة دو دينو (de Dino) في تاليريون
(Talleyrand) ، في قصر روشكوت (Rochecotte) .

العام ١٨٣٧ زار بلزك ميلانو (Milan) لملاحقة مصالح آل
فيسكونتي . ووصل اليها في ١٣ شباط فتحتني به الارستوقراطية الميلانية

طوال فترة إقامته. زار مائزوني (Manzoni) ثم سافر إلى البندقية وابتعد من جنوى في ٨ نيسان ثم انتقل من ليفورن (Livourne) إلى فلورانس (Florence)، وعاد إلى باريس في ٣ ايار. لجأ إلى آل فيسكونتي واختبأ في قصرهم في الشانزليزيه ليعمل بهدوء بعيداً عن ملاحقة كاتب المحكمة. ولم ينقله من المحكمة إلا قرض قدمته له السيدة فيسكونتي. رحلة إلى ساشيه في شهر آب. استملاك كوخ وارض «الجاردي» (Les Jardies) الواقعة بين سافر (Sèvres) وقيلدا قرية (ville d'Avray). عمل بلزك على توسيع ملكيته شيئاً فشيئاً وانشاء فيلا سببت له خيبة كبيرة، وخسارة مالية مجحفة. صدور رواية «عظمة وانهيار قيصر بيردوت».

العام ١٨٣٨ قام برحلة إلى فرايل (Frapesle) لزيارة عائلة كارو وانتزح المناسبة للقيام بزيارة جورج صاند في نوهان (Nohant) حيث بقي من ٢٤ شباط إلى ٢ اذار. قام برحلة إلى سردينيا من ٢٠ اذار إلى ٦ حزيران للاستطلاع عن وضع بعض المناجم الفضة القديمة التي كان الرومان يستغلونها، بعد ان اخبره عنها بعض تجار جنوى في العام الماضي، وكان بلزك يحلم بانشاء شركة لاعادة الحيوية الى هذه المناجم بهدف الاثراء. زار مرسيليا وطولون واجاكسيو ثم انتقل إلى الجيرو (Alghiero). في سردينيا زار آثار المناجم في ارجنتريا (Argenteria) ونورا (Nurra). العودة إلى باريس عبر ميلانو (لم يكن هذا المشروع خيالياً فقد اثرت هذه المناجم مالكيها بعد ان استغلوها بشكل تقني وفي). وصول الرسالة

الأولى من ايلان دو فاليت Héléne de Valette المقيمة قرب جيراند (Guirande). لم يتوفر الدليل على ان بلزك قد قام عام ١٨٣٨ بزيارة جيراند والكروازيك (Croisic) وباتز (Batz) برفقة هذه السيدة بعد ان كان قد تجول فيها برفقة السيدة دو برني . حدد في هذه المنطقة «عقدة بياتركس» (١٨٣٩). تحلى عن منزليه الواقعين في شارع كاسيني وشارع باتاي ليقم في جاردي بصورة نهائية مع عائلة جيلوبوني فيسكونتي.

العام ١٨٣٩ قضية بايتل (Peytel). يتهم كاتب العدل بايتل بقتل زوجته وخادمه مع سابق تصور وتصميم . يحاكم في بور (Bourg) ويحكم عليه بالموت . كان بلزك قد عرف بايتل عام ١٨٣١ وتعاون معه في جريده السارق. ولما احيلت القضية أمام محكمة الاستئناف حضر بلزك إلى بور مع جاقوني وتشاور مع المحكوم عليه بالاعدام. ورغبة منه في اقامة الدليل على براءة كاتب العدل نشر مذكرة عن قضية بايتل الا ان جهوده ذهبت هدراً وتم اعدام بايتل في ٢٨ تشرين الأول ١٨٣٩. في تموز قام فيكتور هيجو بتناول طعام الغداء في جاردي (فيل بلزك) برفقة غوزلون (Gozlon) ، فقد كان بلزك يود التقدم إلى الاكاديمية الفرنسية.

العام ١٨٤٠ جرى عرض «فوتران» (Vautrin) مأساة بلزك في مسرح بورت سان مارتين (Porte Saint Martin) في ١٤ آذار فتلقي الفشل التام . في ١٦ آذار منع وزير الداخلية عرض للمسرحية بحجة ان الممثل

فردريك لوماتر (Frédéric le Maître ، قد تصنع وترين فبدا عند وضعه الشعر المستعار شبيها بالملك لويس فيليب (Louis Philippe) . أصدر بلزك «المجلة الباريسية» متحملاً مسؤوليات تحريرها بكاملها فظهر منها ثلاث نسخ في ٢٥ تموز، ٢٥ آب و ٢٥ أيلول ١٨٤٠ . ورد في هذه المجلة مقالان مازالا يثيران الاهتمام حتى اليوم. الأول حول تاريخ بورت رويال (Port Royal) لسانت بوف (Sainte Beuve) ، والثاني عبارة عن مدح حماسي لقصة ستاندال (Stendhal) راهبة بارم (la chartreuse de Parme) . غادر بلزك قبلته لوجاردي في الخريف واتخذ له مسكناً في شارع باس (Basse) في باسي (Passy) . أقامت والدته لعوزها معه لكنها لا يلبثا ان يفترقا وقد ضاق احدهما بالآخر. باع جاردي بخسارة كبيرة فقد كلفته تسعين الف فرنك لم يسترد منها الا سبعة عشر ألفاً وخمسمائة فرنك .

العام ١٨٤١ ، في نهاية شهر ايار تكون حالة بلزك الصحية قد ساءت فيعمل بصعوبة . في ٢ تشرين الأول عقد اتفاقية لنشر «الكوميديا الانسانية» مع تجمع مكنتات فيرن (Furne) وشركاه دو بوشيه (Dubochet) وهترل (Hetzl) وبولان (Poulin) .

العام ١٨٤٢ علم في شهر كانون الثاني ب وفاة الكونت هانسكي التي كانت قد حدثت في ١٠ تشرين الثاني الفائت. في ١٩ اذار تلاقي مأساته «ثروات كينول» (Les ressources de Quinola) الفشل في الاوربون. في ١٦ نيسان أعلن بيان فرنسا للمؤلفات الحديثة

(ببليوغرافيا) عن وضع الدفعة الأولى من «الكوميديا الانسانية» قيد البيع. في تموز نشرت التوطئة في الدفعة الاخيرة من الجزء الأول. العام ١٨٤٣ قام برحلة الى سانت بترسبورغ (Saint Petersburg) في الفترة الممتدة بين ٢٨ تموز الى ٣ تشرين الثاني حيث التقى بالسيدة هانسكا. في طريق العودة قام بزيارة برلين ، بوتسدام ، ييبزيك ، دراست ، لياج وبروكسيل وزار فيها المدن والمتاحف. أصيب بالتهاب احدى الاغشية الثلاثة التي تشكل أم الدماغ. وقام الطبيب ناكار (Nacquart) برعايته. في ٣ كانون الأول أنهى النحات دافيد دانجيه (David D'Angers) نصفية بلزك الذي ينقاد اكثر من أي وقت مضى لاهوائه.

العام ١٨٤٤ أجهد نفسه بالعمل رغم الظواهر المقلقة التي تدل على ارهاقه الكبير. إستضاف ليرت بوريل ، (Lirette Borel) السويسرية معلمة آنا (Anna) ابنة السيدة هانسكا في منزله في باسي قبل دخولها الى بيت المترهبات حيث تدلي بقسمها تحت اسم الأخت دومينيك (Soeur Dominique) وقد حضر بلزك احتفال النذر في ٢ كانون الأول ١٨٤٥ علماً أنه تفاوض مع الكاهن العام ورئيس الديراوجلية (Eglée) حول دخول ليرت وتبادل الرسائل الحارة مع «الفريية».

الفترة ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ في أول أيار لحق بلزك السيدة هانسكا الى برست حيث تقيم فيها ابنتها آنا وخطيب هذه الكونت جورج مينزك Georges Mnischech . ويتخذ الجميع اسماء مستعارة لهم

فيسمي بلزاك نفسه ببيلوكيه (Bibloquet) وتسمي ايفلين نفسها آتالاه (Atala) وتسمي آنا نفسها زيفرين (Zéphrine) ويسمى جورج نفسه جرانجاليه (Gringalet). ويتلقبون باسم فرقة المشعبدين المرحه. يرحل بلزاك مع السيدة هانسكا وابنتها آنا الى ايطاليا. وأقامت ايفلين وابنتها آنا في باريس بصورة سرية لمدة شهر. قام الثلاثي برحلة عبر فرنسا وهولندا وبلجيكا. غيرة السيدة برينيول (Brugnol) اسمها الحقيقي لويز برونو (Breugnot) خادمة بلزاك وعشيقته التي كان يلقبها «بالانيقة». اختلاس لويز رسائل السيدة هانسكا من بلزاك. في ٢٨ أيلول ١٨٤٦ اشترى بلزاك منزلاً يقع في شارع فورتينه (Fortunée) لاشاتريز بوجون (La chartreuse Beaujon). في ١٣ تشرين الأول حضر بلزاك حفل زواج جورج منيسك وآنا هانسكا. ولادة ايفلين هانسكا لطفلة ميتة بدلاً من الصبي المنتظر والذي أطلق عليه اسم فيكتور هونوري (Victor Honoré).

العام ١٨٤٧ شباط ، نيسان أقامت السيدة هانسكا في باريس في منزل مؤسس يقع في شارع ناف دورني (Neuve de Berry). مشاغل صحية ومالية. اتفاق بلزاك المال دون حساب لتأسيس منزله الواقع في شارع فورتنيه حيث يود الإقامة بعد زواجه من ايفلين. ابتزاز «الانيقة» لا برونول التي تهدد بنشر رسائل السيدة هانسكا إلى بلزاك. شعور بلزاك بالارهاق الجسدي والمعنوي. تدوين وصيته في ليل ٢٨ حزيران واختلافه مع اميل دوجيراردان

(Emile de Girardin) . في ايلول ١٨٤٧ قام بالرحلة الأولى إلى فير شونيا (Wierzchownia) لزيارة الكونتيسة هانسكا . رحل في ٢٥ ايلول ١٨٤٧ ويصل مرهقاً إلى ابعد الحدود بعد تسعة أيام من السفر . في تشرين الثاني قام برحلة إلى كياف ليعود إلى باريس في ١٦ شباط ١٨٤٨ .

العام ١٨٤٨ شهد باثمئزاز تحرر ٢١ ، ٢٢ شباط ونهب المنازل الملكية في اللوفر . في ٢٩ نيسان فشل بالفوز بمقعد في الجمعية التأسيسية . في ٢٥ أيار تعرض لأساته «زوجة الاب» في المسرح التاريخي فتلقى نكاحاً كبيراً . في الفترة الممتدة بين ٢٨ أيار، ٧ تموز يقوم بلزك برحلته الاخيرة إلى ساشيه لزيارة السيدة دومارغون . في ٨ تموز حضر جنازة شاتوبريان وبدأ يفكر بالسعي للحصول على كرسيه في الاكاديمية الفرنسية ، الا ان دونواي (de Noailles) يتخبط باغلبية ٢١ صوت ولا يحصل بلزك الا على صوتين الاول لـ فيكتور هيجو والثاني لـ لامارتين . في ٢٨ كانون الثاني فشل بلزك من جديد في الحصول على مقعد فاتو (Vatout) حيث يفضل عليه سانت برياست (Saint Priest) . وفي المحاولة الثالثة لا يتال بلزك أي صوت .

العام ١٨٥٠ . في كانون الثاني ازداد وضع بلزك الصحي سوءاً ، ورغم ذلك بذل مجهوداً كبيراً ورافق السيدة هانسكا والزوجان نيزاك إلى كياف . خلال وجود بلزك في اوكرانيا أقامت والدته في المنزل الواقع في شارع فورتينه . في باريس واعتنت باضفاء

اللمسات الاخيرة عليه. في ١٤ آذار اقترن بلزك بالسيدة ايفلين هانسكا في كنيسة سانت بـارب دو برديتشاف (Sainte Barbe de Berditehev) وبارك العقد الكاهن فيكتور اوزاروسكي (Victor Ozarowski) صديق العائلة نيابة عن المطران جيتومير. وقد اعترف الزوجان أمام اوزاروسكي المرشد والقس الديني وتناولا قربانها. لا يزال بلزك يعاني من المرض. في شهر أيار اتجه الزوجان إلى باريس، وكانت الرحلة متعبة بسبب وضع الطرق وحالات الاختناق التي تصيب بلزك. وصلا في ٢١ أيار إلى المنزل الواقع في شارع فورتينه، إلا انها لم يحدا أي مجيب رغم الضوء المشتعل. فكان لا بد من اللجوء إلى حداد لولوج المنزل الذي اعده بلزك بحب وعناية له «جنية الشمال». اضطر بلزك إلى التزام السرير بعد وصوله مفضى خائر القوى. في ٣١ أيار استشارة عدة اطباء. ١١ تموز ظهور عوارض التهاب الصفاق وبدء معاناة المريض من الألم الرهيب. في ١٢ آب بدأ جسد بلزك بالانتفاخ وأصيب بنوبات اختناق وعانى من العطش. في ١٨ آب بدأ بلزك بالمتازعة والاحتضار وحصل على مسحة المرض. في الساعة التاسعة مساء عاده فيكتور هيجو الذي يحكي في «الاشياء المرئية» (Les choses vues) لقاءه مع المحتضر. لفظ بلزك انفاسه الاخيرة في الساعة الحادية عشرة والنصف. في ٢١ آب جنازة بلزك في كنيسة سانت فيليب دورول (Saint-Philippe du Roule) وأبنته فيكتور هيجو بصوره في مقبرة بار لاشاز (Père La chaise).

الجزء الأول

الاستعدادات

- ١ -

الأصول والتأسيية

تقصي آثار التأسلية

تقصي آثار التأسلية مرغوب فيه ، لاننا نأمل دائماً ورغم ضعف قوانينها ان نستشف من خلالها السطوة السرية التي تحدد القدر بكامله . كون المرء الوحيد الذي توصل الى تعلم القراءة والكتابة من بين احد عشر أخ واخت ، وباشر العمل ككاتب لدى كاتب عدل في البلدة المجاورة بعد ان قام بحراسة نعاج أهله ، ثم غادر عائلته ليلبي نداء طموحه . هذا الطموح الملتهب كشمس بلاده ، ورحل في السادسة عشرة من العمر سيراً على قدميه سالكاً الطريق الملكية التي تؤدي الى باريس وهو لا يملك من متاع الدنيا إلا هراوة في يده وحذاءً محددًا في قدميه وصرة فوق ظهره . ليصبح فيها كاتباً لدى الوكيل ويتولى فيما بعد منصب امين سر مجلس الملك ...

هذه هي ملحمة وأوذيسة برنار فرانسوا بلزاك (Bernard Francois Balzac) والد هونوري دو بلزاك ، هذا الأب الذي ولد عام ١٧٤٦ في قرية لانوجيرييه (La Nougayrié) في خورينة كانزاك Canezac في بلدة مونتيرا (Montirat) في التارن (Tarn). (توفي في باريس عام ١٨٢٩ في الثانية والثمانين من عمره).

ألا يوجد في قصة نجاح هذا الأب دافعاً لتشجيع الطموح الذي كان يلتهب في دماء ابنه ؟ بلا شك سيتفجر هذا الطموح لدى الابن على شكل مشاريع ترمي الى الحصول على الاجحاد والغنى . وسيظهر في طلاقة لسانه وخصوصاً في التعبير الرائع عن هذه المغالاة الروحية وهذا الشعر الفاسكوني العاطفي .»

هذه النشوة في الأقوال ، وهذا الغش بالتلاعب بالنفس ، وهذا الجيشان من الآمال المدهشة ، وهذه القريحة الخيالية التي تجمل المستقبل وتلوّنه بألوان ذهبية رغم كل الفشل . هذه كلها تتأني من الآباء في مثل هذا الوسط يتفاخر الآباء والابناء في البحث عن الاضواء ويشغفون بالحديث والمناقشة . ولقد كانوا يعيشون في ترف من الافكار التي لا يمكن ان تتصور ألطف منها . فتمتد السهرات التي كان هونوري يقرأ فيها ونشد كبار المؤلفين من معاصرين وقدامى حتى منتصف الليل . وقد كتب الجميع آلام السيدة بلزاك ، الاخت لور وهونوري نفسه عن هذا الامر واكدوه في مراسلاتهم مع الآخرين . ويؤثر الأب أكثر ما يؤثر على «أدب» ابنه في الفترة الممتدة بين السادسة عشرة والثامنة والعشرين من عمره لمحاوراته معه حول علم الاجتماع والسياسة والتاريخ والعرقية والقانون والدين والفيزيولوجيا حيث كان كل واحد منها يدافع عن وجهة نظره بجرأة وثابة .

لاحظ بلزاك في سن مبكرة اصالة والده وابتكاره فسجل البحوث التي كان يستتجها من خبراته وقراءته . ونجد في روايات

الشباب الأولى «ارغو القرصان» (Argow la Pirate). وفي تيار الكوميديا الانسانية خيال الرجل العجوز ونظرياته وعاداته وأفكاره الراسخة. فشخصية الاب توضح شخصية الابن وتفسر عدداً من اتجاهاتها الفلسفية. فقد أخذ الابن عن ابيه «الدين» الذي جاهر به خلال مرحلة شبابه لرابليه (Rabelais) وسترن (Sterne) وروسو (Rousseau) وفولتير (Voltaire)، وفلاسفة القرن الثامن عشر. كذلك اكتسب منه حبه للبحث عن التأثيرات الفيزيولوجية والنسالة (علم تحسين النسل) والوراثة والنشوء والتربية والحياة الطويلة، وأخذ عنه بالاضافة الى هذا كله هذه القوى الجسدية - القوة الطبيعية - التي كانت تتحدى كل التعب والارهاق المتراكمين، وهذه القوى المعنوية التي كانت تغلب على كافة العقبات. فهو لم يكن يخطط لهذه المشاريع الكبيرة «لوم لم يكن يملك ثقة كبيرة بنفسه» كوالده.

يتوفر عدد من هذه الصفات المشتركة بدرجات متفاوتة لدى الاشخاص المتحدرين من اصل جنوبي، هؤلاء الاشخاص الذين تميز جرائهم ونجاحهم المثير وحظهم الصاخب و«حيويتهم التي توجه المرء مباشرة نحو الصعوبة لايجاد حلول لها». صفحات متعددة من «الكوميديا الانسانية» رستياك (Rastignac) نبيل روفاك (Ruffec) الشاب (الاب جوريو) (le Père Goriot) يينايسس (Bénassis) ابن البورجوازية (طبيب الريف) (Le médecin de Campagne) الجندي الريني (شغل في الصحراء) (une passion dans le désert) تيودور دو لايبسارات

(Théodore de la Peyrade) (البورجوازيون الصغار)
 (Les petits Bourgeois) بول دو مـانـرفـيـل
 (Paul de Mannerville) (عقد الزواج) جازونال (Gazonal)
 (Les Comédiens sans le savoir) (ممثلون دون علم منهم)
 (Les Lestrades) ، ليموكومب (Les Maucombes)
 (مذكرات عروسين شابتين)

(Mémoires de deux jeunes Mariées).

اعتبر بلزاك ان «وجود هذا العنصر يستحق دراسة دقيقة من العلم الطبي والفيزيولوجيا الفلسفية» وقد أسخت قصة عمه لويس بلسا (Louis Balssa) الذي اعدم بالمقصلة عام ١٨١٩ في ألي (Albi) لارتكابه جريمة عاطفية - كان هونوري في العشرين من عمره - فرحة تبادل الآراء بين أفراد العائلة. وقد رأى هونوري ان الفيزيولوجيا هي أفضل مفسرة للواقع وقد كان والده هو أول من علمه هذا المبدأ وبينه له. ولا شك ان بلزاك قد دون عدّة ملاحظات وافكار ردّدها له والده في الطبعة الأصلية من فيزيولوجية الزواج (la Physiologie du mariage) عام ١٨٢٦.

ورأى بلزاك ان معجزات الصدقة التي ندين لها بأعظم الرجال هي «سر الحياة» الذي يصعب على تحليلنا الحديث كشفه». على كل حال برنار فرانسوا بلزاك هو الذي مزق الغشاء الشعبي حيث كانت تغفو العبقريّة. ويذكرنا هذا برينان (Renan)، قويسو

(Veuillot)، بيغي (Pégu) الذين تحدثوا بانفعال عن اجدادهم المجهولين. لكننا لا نجد صدى مماثلاً لدى بلزك. فهو يعمل على نحو لقب البيجوا (Albigeois) الذي منحه اياه أهله. ولم يشعر قط بالحاجة الى استنشاق رائحة هذا الحقل الذي ففي فيه اجداده يمنحهم لنجاحه الكبير. لقد اختار كبار هذا العالم وجهه للنفاذ الى دائرتهم. وقبل بغطرسهم واغتصب شعار بلزك دونتراج (Balzac d'Entragues) دون ان يرف له جفن، وجعل من نفسه رسام الارستوقراطية التي اخذ منها غالبية شخصياته ونماذجه وقيم الفلاحين بالنسبة الى سيد القصر والاقطاعي البكر.

لقد زيف التطرف الرومانسي رواه، فقد بدا له الفلاحون والفلاحات أشبه بمخلوقات بدائية بقيت غرائزها المشدودة الى الارض في طور التوحش والبهامية مع بعض الاستثناءات البسيطة. ووسمت هذه الواقعية الفظة القاسية المتحيزة والظالمة بالغم والحزن بعض صفحات «طبيب الريف»، «كاهن القرية»، و«الفلاحون». وتذكر أمام بعض عيون القراء ظلال محنية في آفاق اخرى بعيدة. وتذكر المارشال مونكورنييه (Moncornet) في رواية «الفلاحون» الذي «ينسى ارادياً» انه ابن عامل في ضاحية سانت انطوان (Sainte Antoine). لقد عرف بلزك بدوره ردة الفعل هذه من الزهو المترفع الزدري لاجداده واعمامه وابناء عمه في قرية نوجيريه.

كانت والدة بلزك واسمها آن شارلوت لور سالانييه

(Anne Charlotte Laure Sallambier) تسمى الى البورجوازية الباريسية وكان والده موظفاً كبيراً في المون وابن عمه مطرّز فساطين وأجواخ استقر في المارية (Marais) واتخذ له اسماً «البزة الذهبية» (La toison d'or).

كانت الام في الثانية عشرة من عمرها عندما تزوجها برنار فرانسوا بلزاك الخمسيني والمغمر بعلم النسالة. كانت جميلة وأنيقة وغنية. إلا أن المنزل الذي ولد وترعرع فيه اربعة أولاد هونوري البكر، هانري (Henri) وابنتان لور (Laure) ولورانس (Laurence) لم يكن نموذجاً للفضيلة العائلية كما يتوقع من اتحاد غير متكافئ كهذا. وكانت عبارة الام المفضلة «الثروة، الثروة الكبرى هي كل شيء اليوم» فكان ان تسلطت تصورات المستقبل الذهبي وجشع المال وحب التروات المترفة على احلام هونوري في سن مبكرة. وإذا اخذنا باعترافاته وكذلك بأقوال فيسار (Fessart) احد اصدقاء العائلة فاننا نجد ان السيدة بلزاك لم تكن تحنو على ابنها البكر وتعتبره «ابن الواجب والصدقة» وتغمر «بمداعباتها المخبونة» ابنها الثاني «ابن الحب»، «ابن الزنى» وتفضله. اصطدم هونوري «ببرودة الامومة» وعرف في سن مبكرة سرها، فحاكم والدته بقسوة في اعترافاته الخاصة التي أدلى بها الى صديقاته الحميات الثلاث زلي كارو ودوبرني وهانسكا.

غالباً ما كان هذا الألم السري يستيقظ بشدة كجرح قديم ونستشف مرارته بوضوح من خلال اشارات بارزة في الاحتفال المنوي

(le Centenaire) وجان الشاحبة (Jane la Pâle) وجعبة القنابل (La Grenadière) وامرأة الثلاثين والزنبق في الوادي . ويصاب القارئ بصدمة عندما يجيد قراءة هذه الاشارات للصحاح فيصبح السرد الخيالي أبلغ أثراً .

قام سوء تفاهم عميق بين السيدة بلزك وابنها وقد ساهمت امور عديدة بتخريب علاقاتهما ، فمن جهة كان هناك عصبية الام وسرعة تأثرها واصالة وجدة لم يكن الابن خالياً منها . وقد كتب يقول « نحن طريفون في العائلة » . ثم جاءت قضية المال لتربط احدهما بالآخر فقد كان بلزك دائماً لوالدته وقد افقرها بعد افلاس مطبعته ، وكانت هذه الديون تدفعها الى تبادل اتهامات لا تنتهي : هي بهدف الحصول على « قطعة خبز » وهو ليجدد لها وعوده بالايفاء ، هذه الوعود التي بقيت كلامية ولم تنفذ ، وتقديم حججه التسويقية للهرب من الدفع .

ويقال ان هذا البؤس قد ترك أثره في وجوه امومية كثيرة في «الكوميديا الانسانية» . هناك وجوه رائعة كالسيدة بيروتو (Birotteau) وليدي براندون (Lady Brandon) ، والسيدة هوشون (Hochon) والسيدة صوفيا (Sauviat) وبعضها كريبه جداً كماركيزة ايجولمون . أفليس التنوع اثراً سعيداً للغنى والحياة .

نلاحظ في وصف بلزك للام ورود لمسات مشوهة وخاطئة : جي دوماتر وفيكتور هيجو ولمازين لم يرتكبوا مثل هذه الاخطاء . تقدم مذكرات العروسين الشاباتين « ١٨٤٦ »

(Mémoires de deux jeunes mariées) للجمهور نوعاً من الشعر الغنائي الذي يرفع الى السماء «فن الامومة العظيمة». تفتح السعادة فيه مرصعة وفق العقيدة التقليدية. انها ثمرة التفكير الفلسفي الذي لم يسبقه تفتح القلب. كتبت هذه الرواية برودة فعل داخلية: لقد تحرر فيها الكاتب من الذكريات الثقيلة التي ضاق بها بوجود الام. إلا ان الشابة تستمر: حذر الانانية البرجوازية الدقيق الذي تنادي به العروس الشابة على حساب الشرف الزوجي والمسيحي. وأخيراً أقرأوا كتعليق رسائل الى الغريبة في نفس التاريخ وستقتنعون.

اجواء المترل كانت معادية للمسيحية بوضوح وان تكلموا فيه كثيراً عن الدين بوجهات نظر جذرية فالسيدة بلزاك الفضولية تحب الاطلاع على الافكار؛ ومراسلاتها خير دليل على ذلك. وتشبع معتقداتها بالتعليم السري للملل التي كانت متشرة آنذاك: السويدن برجييه، المارتينية والمسميرية. وكانت تتعاطى علم الخصائص المغناطيسية وتمارس التنجيم. وكانت مكتبتها غنية بمؤلفات الكتاب اصحاب الرؤى في الدين والفلسفة. ففي الزاوية القريبة يقبع سويدن بورج، سان مارتان، الفيلسوف المجهول. وقد وضعت هذه الكتب بين ايدي أونوري الذي كان فضوله يفتح في سن مبكرة. فاهتر خياله، وتلذذ المراهق بالصور الفردوسية: روعة ولذة. وتظهر ردود فعل هذا التعليم في كافة مؤلفاته. وقد ألف في السابعة عشرة من العمر قصيدة من النثر الموزون ليستجيب لدعوة صوفية: فالتيرن (Falthurne) التي وصفها فيما بعد للسيدة هانسكا بانها

«تمتات»، «مخطوطة طفل»، «مخطط اجالي» للوحة الكبرى سيرافيتا (Seraphita). وتدل كلها محاولة جديدة فالتبورن الثانية، العيد المئوي (١٨٢٨)، معاهدة الصلاة (١٨٢٤) على نشاط منابر لاقامة نموذج ديني على اساس علم الخفايا المارتيي. وتلقي شخصية السيدة بلزلك الاضواء على سير عدّة صفات وأوضاع في الكوميديا الانسانية. ومن المفيد معرفتها بصورة حسنة. لقد تعذبت برؤية موت ابنها وتوفيت في اندليس (Andelys) في أول نيسان ١٨٥٤ بعد ان بلغت الخامسة والستين من العمر.

يظهر تجاذب غريب بين باريس وبلزلك. هل يجب ان نخضع هنا لنفوذ التأسلية الاموية؟ في الفترة الممتدة بين ١٨١٤-١٨٥٠ لم يغادر المؤلف مدينته إلا للقيام برحلات عابرة. لنشر بشكل مختصر الى الدور الكبير الذي كانت تلعبه باريس في الكوميديا الانسانية، باريس التي كان يراقبها في ادق تفاصيلها، يراقب منازلها ومبانيها «بانتباه العارف المحلل»، باريس التي كان يتأملها كالكاكن الحلي، «مخلوق» كان يخضع «انسجته وخلاياه» لفحوص فيزيولوجية. كان من هؤلاء «الذين يتذوقون باريس ويعرفون وجهها جيداً فيلاحظون كل تولول، كل حبة، كل احمرار». سيكرسها ملكة وسيدة في مؤلفه الضخم فتشكل قلبه المخيف. فقد عرفته المدينة الاسطورية ذات السماوات الخرافية، «صاحبة المئة ألف رواية»، عرفته تلميذاً وجامعياً، كاتباً لدى حمام، كاتباً مبتدئاً، بوهيمياً، عاشقاً، مغروراً وكاتباً شهيراً. عرفته، أثارته وتوجت كل حماسه. لا بد من قراءة

اجزاء من الحياة الباريسية وخصوصاً وصف باريس في فيراجيس ، الفتاة ذات العيون الذهبية (Ferragus la fille aux yeux d'or) والاب غوريو للاعجاب برونقها . لقد عرف بلزك كيف يفسخ كل المعصاة والمأهية والتناقضات في هذه المواطن المناسبة لعبقريته الخلاقة . وتذكر رواياته غشاء الكتابة ، زاد ماركاس (Z. Marcas) الشهداء المجهولون (les Martyrs ignorés) اعتراف طبيب الريف ولوجيات مؤلفات متنوعة (œuvres diverses) تذكر بشبابه المشتعل الطموح .

* * *

أخيراً ولد بلزك في مدينة تور في ٢٠ ايار ١٧٩٩ . وغادرها عام ١٨٠٧ بعد أن بلغ الثامنة من العمر حاملاً معه الى مدرسة فاندوم ، «الذكريات الأولى في حياتي- كما يقول في زنبق الوادي- الشعور بالجمال الذي يتنفس في ربوع تور والذي تأقلمت معه» . وتميز هذه البصمة بصورة واضحة مؤلفات المستقبل . لقد نشأ حتى الرابعة من عمره ، كأخته لور ، لدى مربية تقيم في سان سير وهي إحدى ضواحي تور وأحدى اجمل مواقع منطقة تورين . وكانت منازل القرية البيضاء تمتد على طول التلة ، وتحيط بها اشجار الحور الجميلة التي كنا نسمع حفيفها . وتحاذي التلة نهر لوار الذي تمضي مياهه للمتوجة ببطء بين الضفة الرملية النحاسية وتدفق الساقية الشقراء ، والجزر المخضوضة ووريات الصفصاف . وكانت المراكب الشراعية البيضاء تمر جماعات وقد نفخها الريح فتربل الاصداء

اصوات واغاني البحارة . وكان الطفل يفتح نظراته على الحياة في ظل هذه السماء الكبيرة الصدفية ويستحم في هذه الاجواء الهادئة الساحرة ، «حيث تسود طيبة الارض الصافية لا الجرأة ولا الفخامة» ، كما كان يقول في انطباعاته حينذاك . تتلاشى التلال المزروعة المخملية في البعيد وهي تبدو ملطخة بالبقع البيضاء التي تكونها القصور والبساتين الصغيرة التي تحيط بها رياض الازهار والعريش «في ظل سمائك الصافية شهدت نظراتي الأولى فرار الغيوم الاول» . وقد رسم هذا الدهول وهذه الدهشة انطلاقة حساسيته المبكرة «هذه النبلات الضائعة في ذاكرته» التي ادهشت كل أهله في طفولته كانت تشكل اللوحات التي تسعد حنين تلميذ فاندوم .

هذه الاحاسيس الأولى ارتسمت بعمق في نفسه وستكشف عن حقيقتها وعنفها وسحرها في دراسة الروائي المبتدئ الأول ستيني (Stenie) ١٨١٩ فاحداثها تدور في تور وسان سير .

وتلعب هذه المناظر الطبيعية التي وصفها بدقة وحب دوراً اساسياً مرتبطاً بالاحداث من خلال المشاعر التي تثيرها في نفسي البطلين الرئيسيين جوب (Job) وستيني .

في نيسان ١٨١٣ يعود المراهق الى تور بعد أن امضى في مدرسته ست سنوات لم يغادرها خلالها اطلاقاً . ويتابع خلال عام ١٨١٣-١٨١٤ دروس الصف الثالث في الثانوية ويتجول كذلك في المدينة دون ان تتعب عيناه من تأمل مبانيها . ويتذوق روعة المنازل

العتيقة والاحياء التي تحافظ فيها الطرق الضيقة الملتوية على مسحة من القدم. ولا شك ان اجواءها ستوسم اكثر من قصة مضحكة... وتجذبه كاتدرائية سانت غاتيان (Saint Gatien) بظلالها ، وغالباً ما كان يتسكع في «صحراء الحجارة» التي تحيط بغنائها عند تدفق الاحاسيس الدينية والرومانسية في طرقها الصامتة حيث تصل خفيفة امواج شجية من الاغاني المقدسة وتوج الارغون الضخم. وينشر بلزك بعض الشيء عن غربان الزيج «التي يقلقها ارتجاج الاجراس»، وسيحي طيرانها قدرته على الوصف. وتقول اخته لور «ان اسم سانت جاتيان كان يوقظ في نفسه عالماً من الذكريات». ويردد هو نفسه انه خضع لسحر عظمة الطقوس الدينية. وكم من روايات حفظت آثار هذه الانطباعات! ستيني، جان لابلال (Jane la Pâle) المحرومة (l'excommunié) الاستاذ كورنيليوس (Maitre Cornélius) امرأة الثلاثين كاهن تور ورواية غير كاملة الكاهن الكاثوليكي (le Prêtre Catholique) .

كانت تجذبه عظمة النهر وتشده فيعود الى ارتياد ارضيته ووضفاه «حيث يبدو نهر لوار العريض وكأنه يسيل في قناة واسعة نحتها فنان». وكان يشعر بالفخر لولادته في احدى هذه الابنية العظيمة المنتصبة كلها على نفس المستوى الهندسي الذي جعل من الشارع الملكي - قبل ان تهدمه الحرب - درباً منتظماً متناسقاً كلاسيكياً». وقد اشاد به في «المناجاة» (L'apostrophe) احدى القصص المضحكة بنشيد بياني عنائي. ويمكننا أن نشير الى كثير من لمسات السحر التي

تركها التوراة على طباعه ونتاجه .

أمضت عائلة بلزك ستة عشر عاماً في تور قبل ان تغادرها نهائياً في أواخر سنة ١٨١٤ بعد ان اقامت علاقات وعقدت صداقات مع خيرة المجتمع . ولم تنقش اجواء تورن وتبدد بسهولة . فقد كانت الجلسات العائلية تحيي ذكرى الريف الجميل حيث غمر النجاح آل بلزك . ونجد ان العائلة قد حافظت على مصالحها في تلك المنطقة فأبقت على مزرعة تبلغ مساحتها ستة عشر هكتاراً في ضواحي تور ولم تنازل عنها إلا بعد عام ١٨٣٠ . وقد تمسك هونوري طوال حياته ، حين كان ينبغي اراحة فكره المتعب أو يود البحث عن الوحدة أو يتوق الى الصمت المهيب لبذل الجهود الكبيرة ، بزيارة احد اصدقاء والدته الحميمين السيد دومارغون صاحب قصر ساشيه . وقد عاش في هذا المنزل اجمل أوقات حياته وأكثرها إنتاجاً وكتب فيه بعض أجمل روائعه «لويس لامبير» (Louis Lambert) «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu) ، «الاهام الضائعة» (les illusions Perdues) «سرافيتا» ، الاب غوريو ، قيصر بيروتو» ، و«الزنبق في الوادي» . وهذه الاخيرة تدور أحداثها في ساشيه .

وسط هذه الطبيعة التي كان المؤلف يحكي فيها الاطياف المحبوبة ، كانت حساسيته تلتقط وترجم كل رائعة من روائع وطنه الصغير : روائع الطبيعة وروائع الفن ، عذوبة مناخه المطلق ، شفافية ضوئه حيث تبرز حدود الأشياء بتوه غريب الوضوح . بأي حماس شرع في

حب وهاده لوار، والشار (Cher) والآندر (Indre) والسيسة (Cisse)،
ولدانة تموجاتها الساحرة: «لا تسألوني بعد اليوم لم أحب التوران،
فأنا احبها لا كما يغرمون بالمهد ولا كما يهيمنون بالواحة في الصحراء،
انا احبها كما يهوى الفنان الفن! لعلني لما كنت أحيا اليوم
لولا التوران!».!

* * *

هل تسكنت في نواحي ساشيه وفوفريه (Vouvray) المشهورة
اليوم وانت تتصفح الروايات التي حققت شهرة بلزك؟ هل نقلت
عينك بين المنظر الطبيعي وتصويره الفني؟ اذا قت بذلك فانت لست
من هؤلاء الذين يأخذون على بلزك ضعف موهبته البصرية. على
العكس من ذلك تماماً أنت تلاحظ في رسومه صلابة خطوطه
ولا ادري أي ارتجاف في ألوانه! فهو دقيق، يحدد في الرأي بعض
نقاط الاستدلال التي تشكل بالنسبة اليه بعض اشارات الصحة
والاستطلاع، كما هي الحال بالنسبة لقرائه اليوم لان سياء الفتنة
ما زالت تتمتع بنعمتها الخالدة ولم يصيبها العجز. ووصفه «حقيقي»،
صادق بصدق حميم وعميق وهو يكشف سحر الخطوط والاضواء
الاكثر سرية، كما قال القاضي اندريه هالي (André Hallay).
تكشف غنائية الشاعر عن رقة في الكلمات وتوقد في الاحاسيس
تنبعث مرتعشة عندما يستجلبها ويبحث في اعماقه عن الصور الرومنسية.
وكان يجب ان يكرر القول بان روحه قد سجلتها الى الابد. لقد
قامت قرابة وثيقة بينها وبين حياته العاطفية. وكان يسلمنا اسرار فؤاده

وافتتانه حين يقرب ابطاله من السكون المتناسق الذي يمنحه سحر الطبيعة اللذيذة الضبابي الدقيق الى الاحساس كما في «جعبة القنابل». ألم يضم هذا المنزل في أحضانه عام ١٨٣٠ الكاتب التمل بمجده المستجد و«الحبة» التي كانت تحول فخرها وعزتها الى حنو متجدد؟ ألم يضم هذا المنزل وهو بعيد بناء هذه العلاقة بين ابطاله ويقودهم الى هذه الاماكن نفسها مما يجعل وصفه لطبيعة توران غير قابل للنقد الذي يوجه للبعض حول عدم وجود صلة نفسية بين الوصف والعقدة. وتعطي رواية الزنبق في الوادي خير دليل على ذلك.

فهذه الرواية تسمى الى مجموعة الروائع الملقبة بمرحلة التوران. وبالإضافة الى اللائحة المذكورة سابقاً نعدد «جعبة القنابل»، «السيدة فيرمياني» (Firmiani)، «أوجيني جراندي»، «جوديسار الشهير» (l'illustre Gaudissart) و«الصديقــــــــــــان» (Les deux amis) (لم تكتمل)، دون الكلام عن عدة قصص مضحكة والمقالات والرسائل. وتعتبر رواية «زنبق الوادي» في آن واحد مجموعة اناشيد وكتاب مذكرات فكم ورد فيها من الصفحات البياضية، العابقة بالعطر، الهادرة الملونة بالتماس مع هذه الطبيعة الضاحكة، هذه الارض المؤثرة، هذه المواقع المتقلبة دوماً في تيهها المتألق! من استطاع ان يعطي صورة أفضل من بلزاك من بين رسامي التوران الحديثين والمعاصرين، موديس بودال (Maurice Bedel)، هنري جارلين (Henri Guérin) اندريه هاليسه

(André Hallays) ، جاك ماري روجيه
(Jacques Marie Rougé) اندريه توريه (André Theuriot)
عن حسن « واديه الغالي » المحتبك الذي كان يقول فيه انه يسكن
الآلام ويوقظ الاهواء ؟ وفيض « وادي الحب » بالشعر الغامض الذي
يفدق في قلب حاج ساشيه لسمعه صوتاً ملهماً ويغذي رغباته الاكثر
خصوصية ويتمهد احلامه الشهوانية ويشفي اهواءه الميؤوس منها يحتفظ
الاندر (Indre) مع بلزاك بمظهر حورية الماء القديمة الهاربة وسط
الحقول والمتدحرجة كالشعابين بين خطوط القصب والصفصاف المتلوية
والناارية من العيون العابرة أو اللامكتثرة وهذا وفق الساعة أو الفصل ،
والمنبتقة من قلب الدوامه حين يصفع دولاب الطاحون الجداول ،
لتعود الى الظهور خلف باقة من الاسل متوجة بالفينوور وزنبق الماء كما
لو انها تريد اجتذابك نحو قصر ريفي قصير أنيق يتحرقى في كريستال
مقبض خجول ويحيط به ذهب الحور الشاحب .

ونؤكد اذا انتقلنا الى الجغرافيا الاقتصادية والغذائية والمذاقية انه
قد توغل الى كافة الميادين واحب كل انواع مذاق ريفه . ويمكننا ان
نردّد نفس الشيء عن تاريخ منطقته ومبانيها وقصورها وكنائسها
ومنازلها فقد وجد فيها موضوع أوديكور عدة قصص . كذلك
لم يكن بوسع بلزاك أن ينسى سكانها فكريس لها في « جوديسار
المشهور » فقرة طويلة : وهو يشير الى ان ميزاتها هي الانعكاس
الحقيقي للطبيعة المكتنفة بها . وقد اسند بفضل نظريته حول البيئة
نفوذاً كبيراً للتوران . اذ تتوفر في مواطن رابليه السخرية والهجاء والفكر

القصصي الماكر ! ولكنه بالاضافة الى هذا كله فهو موطن القصور الرائعة وارض المملذات التي عجز الملوك والملكات ومحظيات الملوك وجلساؤهم والفنانون ان يتخلوا عنها في عصر الانبعاث... ففي هذه الاجواء تطفو الرقة والادب ، والشغف بالفنون الجميلة ، والشعر الملتهب والعطر المثير. هذا ما ينتشقه الوليد في توران مع أول رشقة عبير. ولكن لا بد من نقل التوريني الأصل الى مكان آخر لتطوير كل هذه البذور وتحقيق الوعود التي تضمها والإفان نعومة الهواء وجمال المناخ وسهولة العيش تنال من ارادته على المدى البعيد. واظن ان بلزاك يطري نفسه هنا وبامكاننا ان نرد عليه ونفند له القول ونقدم له الحجج ! لماذا كان يعود دائماً ليجدد قواه في هذه الاجواء ؟ اذن ، نجد في معارضته أدباً أكثر مما نجد فيها تعبيراً عن الواقع . ويدل الانتصار الذي يحققه سكان قوقريه على جوديسار ملك الوكلاء المتجولين والمتشددين النورماندي الاصل ، الذي بات باريساً بالتبني كما تبين قوة ثورته المخاتلة على الاحتدام الذي كان يكنه لمواطنيه الذين يقاسمهم ميزاتهم واطغاءهم المحبة في غالبيتها. كم من مرة اعرب عن رغبته في قضاء أيامه الأخيرة في هذه المنطقة التي احبها ! فقد كتب مثلاً الى راتية (Ratier) مدير الخيال (la Silhouette) في رسالته المؤرخة في ٢١ تموز ١٩٣٠ وأه لو كنت تعلم ما هي اللورين... لقد بت اعتبر النجاح والجلس الثيابي والسياسة والمستقبل والادب ككريات لحم مسموم لقتل الكلاب الشاردة التي لا مأوى لها ، وأرى ان : الفضيلة والسعادة والحياة هي ايراد ستمائة فرنك على ضفاف نهر اللوار

(Loire) .

ثمة كثير من الأقاليم التي ساهمت بمواردها في تغذية وحيه : إيل
دوفرانس (Ile-de-France) ، برّي (Berry) ، بورغوني
(Bourgogne) بروفانس (Provence) ، سافوا (Savoie) ، كونتا
(Contat) أنغوموا (Angoumois) ، بريغور (Périgord) ، دوفينه
(Dauphiné) : فقد كان من الواجب ذكرها كلها .

ما من اقليم من هذه الأقاليم شُرّف بحبٍ اكبر من حب هذا الابن
البار الفخور بأصله .

وبإمكاننا ان نستتج بدقة انه لولا تأثير مسقط رأسه عليه ،
لما استطاع بلزك ان يكتسب معنى الوحدة ، والمقياس والانسجام التي
عوّضت ، ولو جزءاً يسيراً ، من صلف وحمية وراثيته الجنوبية .

لقد عرف ان يعطينا الاحساس بالحياة الاقليمية . وان يعين ذهنية
كل اقليم . فأبدع في تصوير المدن الصغيرة الغارقة في ماضٍ من الكآبة
لأن مجدها الذي ساد قد باد الى الأبد .

وأحب ان يبعث مآثرها من جديد : بروفانس (Provins) ،
بيارات (Pierette) ، إسدون (Issoudan) ، لارابوز
(La Rabouilleuse) ، سومير (Saumur) ، أوجني غراندة
(Eugénie Grandet) ، الونسون (Alençon) ، العانس
(La vieille fille) ، لوكابنية ده انتيك ، (Le Cabinet
des Antiques) ، نموى (Nemours) اورسول ميرووا

(Ursule Mirouët)، انغولام (Angoulême) ايليزيون باردي
(Illusions perdues)، سانسار (Sancerre) لاميز دو دبرتمان
(La Muse de Département)، بزسون (Besançon) البارت
سافاروس (Albert Savarus)، الخ..

فبيت ، أو أثر تذكاري ، أو أثاث ، أو اشراقه مثيرة للاعجاب
كانت تكفي لتكثيف الأفكار المرشدة للبيئات الاقليمية ، بغية كشف
ما استتر من حياتها المخنوقة .

لكن علينا ألا ننق بهدوء هذا الجو ، فهو يغلف ويخفي من
الأجواء ، والمصالح المتضاربة ، والانفعالات الساخنة للخصومات
المتعددة الأنواع ، والأحقاد ، الشيء الكثير .

وتثار على الفور لويحة المدينة الصغيرة التي شرع بها لابرويار
(La Bruyère) : « هناك شيء لم نره مطلقاً تحت السماء ،
والذي ، حسب كل الدلائل ، سوف لن نراه أبداً : هذا الشيء هو
عبارة عن مدينة صغيرة لم تنقسمها الأحزاب ، عائلاتها متحدة غير
مضككة ، وأبناء العم فيها يتلاقون بكل ثقة ، والزيجة فيها لا تحدث حرباً
أهلية ،... منها أبعدت الثروة ، والأكاذيب ، والغبية ... » .

وكان بلزك أول من دفع بهذا الكشف حتى في ادق التفاصيل في
المعادات : لا احد قبله كان قد اماط اللثام عن الأسرار المأساوية التي
تخفيها الرتبة الواضحة للحياة الاقليمية حيث الحساب والتفكير المستمر
« يعبران قيمة كبيرة لأعمال ليست ذات قيمة » .

وأخيراً ، فقد أوضح التغييرات العميقة التي كانت الثورة قد حملتها في تخمين القيم الاجتماعية ، وفي العلاقات ما بين فئات الشعب الواحد . فالبورجوازية الصغيرة تستولي على السلطة السياسية التي كانت بحوزة النبلاء (الفلاحون) . والحضومات تتفاقم ، «التنظم أصبحت رجالاً ، ورجالاً ذوي اهواء لا تقف عند حد ؛ فهم ينظرون الى بعضهم البعض وكأنهم مبارزين ، منهمكين بكرابية بعضهم كلاعب القمار المدومي الرحمة» .

وتخلق الآراء السياسية مودات خاصة تنعكس على الأطفال . وفي هذه النقطة كما في الكثير غيرها ، كان بلزاك مؤرخاً : فهو لم يكتفِ برواية ما يراه وحسب ، وإنما ما يستعلم عنه في محادثاته مع الأهل والأصدقاء .

وقد لوحظ ان بلزاك كان يهتم بالحقائق الاجتماعية أكثر من اهتمامه بلوحات الطبيعة . فهذه الأخيرة ، لا ترتدي طابعها العميق ما لم تكن ممزوجة بدراما فكرية ، تعلق وتبلبل روح الأشخاص : فبأعينهم ، ومن خلال أفكارهم ، يشاهد القصصي ظروف المنظر الطبيعي ، وظروف العاطفة والوجدان . وفي هذا الصدد كثيراً ما نستشهد بـ «طبيب الريف وخورى الضبعة» Le Médecin de Campagne et le Curé de Village

فالدكتور بناسي (Bénassis) بقلبه الحزب بالحنية ، وبذكري ضعفه وخَوَرِهِ ، نطق بهذه الكلمة : «حب الطبيعة هو الحب الوحيد الذي لا يندع الآمال الانسانية ، فلا وجود لحنية الآمال في الطبيعة» .

ويفرح «بلذات» عظيمة بشعوره «بالروائح المنبعثة من صُنعغية شجر الحور ومن عرق الأشجار الحرجية» هو نوع من «الاحاسيس لا يشك بها أناس المدن». في الجادة الرائعة «رواق من الاخضرار حيث وقع حوافر خيولهم ترن كما لو كانت تحت قباب الكاتدرائية». «وبالتأكيد، يوجد هنا شيء ما ديني، كما يقول بناسي للقائد جناستا (Génestas)، وشعورنا بصغارتنا وتفاهتنا يُعيدنا دائماً امام الله». وفارونيك غراسلن (Véronique Graslin)، يستخلص الشيء نفسه من ترهاته على جواده خلال غابة مونتنيك (Montégnac). فروحه الموحشة، المعذبة بوخز الضمير، تشترك مع الحزن العميق الذي تعبر عنه هذه الطبيعة الوحشية، المخربة، المهجورة، والمجذبة في آن معاً، والتي تتجاوب مع مشاعره المحبّة. وبالنهاية، فإن الهدوء الصارم، وسكون القمم المشجرة، توجه افكاره واحلامه نحو «نسق ونظام من الأعمال» ارفع، واعلى مرتبة من تلك التي تصب فيها عادة: يجب الخضوع لقانون الاستغفار.

فالازمة الأخلاقية التي يتخبط فيها كل من ضمير بناسي وفارونيك، تتطلب بأن تقوم مشاهد الطبيعة بتوجيه خط سير افكارهم الثابتة نحو هذه الاعلاءات الدينية. الشيء عينه حصل لكامي موبان (Camille Maupin) بياتريكس (Béatrix)، التي خاب ظنها في حيا لكاليس دي كانيك (Calyste du Guénic): فلا نهاية المحبط رمته بين أذرع الله. لابورس (La Bourse)، لابوده شاغران (La peau de chagrin) ابنة الثلاثين (La Femme de)

(Le Lys dans la vallée) الزينق في الوادي (trente ans) كل هذه المؤلفات تدلنا على أن ساعة الأصيل تتحدى الأحلام الناعمة حيث يجد القلب بلسماً وعزاء لعذاب الحب ، أو إثارة ملائمة للزهد بالمداعبات والملاطفات واللاعترافات المضطربة : هنا تصبح الطبيعة شريكة للعشاق . له شوان (Les chouans) ترفض بشكل تام علاقات الطبيعة مع جسم الانسان : ولسوف نرى ذلك فيما بعد . فأوصاف الطبيعة تغزر في «الملهاة الانسانية» (Comédie Humaine) حيث نستطيع ان نؤلف منها مجموعة مهمة : فالبحر والجبل والوديان يكثر وصفها فيها مع بعض الإطالة والاطناب حيناً ، وبعض الكمود والشحوب حيناً آخر . فقاطعة جبال دور (Dore) وقه ساني (Saney) قد أثيرت في «فروة الهم» (La Peau du chagrin) ، وهي بمثابة وصف طبوغرافي للمنطقة .. والكاتب يكدّ نفسه في مضاعفة التناقضات . ونحن نحسّ بهذا المجهود المضني في البحث والتنقيب عن التعابير الغريبة . فلنقرأ ثانية في كتابه «خوري الضيعة» قصة العيد حيث يحتفل بتدشين السد الذي يحول وادي غابو (Gabou) ، كلية مؤمناً له حضوية رائعة ، وجاعلاً من مئتره مونتانيك مكاناً للسحر والافتتان . على انه يجب ان نعترف بأن هذا الوصف كان ينقصه الوضوح والرونق ، فتكثر فيه الصفات المتبدلة والعادية : «اناقة تامة» «تأثير ساحر» «مرسوم يتفوق» «مواقع جميلة» «اثاث جميل» «متزل ريفي صغير» «جداول صافية» ، «يوم رائع» ، «شلالات شجية» . فهذه الكلمات وهذه الصفات لا تحمل معها موكبها من الصور البصرية

والسمعية . فتوقف عند هذه العينات لنقتنع بأن لوحة ألوان بلزاك تحتوي أحياناً على ألوان غير براقية . فالابتكار الفعلي هنا غير متوفر ، ولا يُعادل دائماً القوة الانفعالية أمام مشاهد الطبيعة .

وكم من تكرار في أسطر قليلة ! وبالمقابل ، فإن الكتاب ذاته ، وعلى بعد صفحات قليلة ، يقدم لنا انطباعاً جميلاً بمساء القرية ، ومشهداً للحصاد حيث النداءة والحقيقة والواقع تعطي جميعها للشعر اجنحة ، وتشير الى حساسية صادقة : فهي لا تتطلب أي تسامح من المعجب .

وجملة القول ، ان بلزاك وإن لم يصل الى اشراق وسطوع شاتو بريان (Chateaubriand) وفيكتور هيغو (Victor Hugo) فإنه كان موهوباً بملكة نظرية ، وعندما كان يصف فإن لوحاته كانت تسحرنا ، وان لم يكن ذلك دائماً ، بأحكام قسماتها أكثر من اصالة تعابيرها .

- ٢ -

بداية النجاح

ظهرت موهبة «الشاعر» كما سماه رفاقه في ثانوية قاندوم منذ كان في الصف الثالث متوسط. وقد ثابر «القرزام» في شغفه. ولم تكن محاولات المبتدئ تتعدى ميدان الشعر عام ١٨١٨. فكانت «رومانسية» وفق أسلوب لامارتين، ثم مدعية كلاسيكية وفق أسلوب فولتير. وقد حاول كتابة الملحمة مقلداً لاهانرياد ثم انكب على كتابة مأساة روائية (كرومول) ١٨١٨، إلا ان فشلها الدريع دفعه إلى التحول نحو آفاق أخرى في طموحاته الأولية. وكانت الفلسفة قد اجتذبت به، فقد تابع في السوربون في الفترة الممتدة بين عام ١٨١٧ - ١٨١٩ محاضرات فيكتور كوزان (Victor Cousin) الذي كان يبدو ككائن غريب قادم من عالم لا مرئي لاعلان أمور مجهولة، كما يقول فيليب داميرون (Philippe Damiron). واذا قارنا بين النظريات التي كان يجهز بها لويس لامبير في رسائل باريس المؤرخة العام ١٨١٨، بينما كان يتابع دراسته في السوربون، والأفكار التي عالجها فيكتور كوزان في نفس الفترة فاننا سنلاحظ محاكاة دقيقة وشبهاً غريباً. لقد كان فيكتور كوزان يدرس الأشكال التي اتخذها الشعور الديني على مرّ القرون في كل اثارها لدى كل المتحليين بموهبة خارقة ولدى معلميه الأسرار (معلم الأسرار كاهن يوناني قديم كان

يلرب على أسرار الدين). ويبحث في قوانين علم النفس الفيزيائي عن تفسير لهذه الظواهر، واضعاً على نفس المستوى دلائل التعصب ومظاهر القداسة المسيحية الحقيقية من كشف ونشوى وذهول التي أصبحت حكمة لكتاب «الكتاب» الصوفي « (le livre Mystique) ، «المحرومون» (les proscrits) ، «لويس لامبير» ، «ساروفيم الملاك الطاهر» (١٨٣١-١٨٣٥). وكان بين تكون وتطور المعتقدات في ظل التأثيرات العرقية والجغرافية، ونجد أن هذه الفكرة قد احتلت دوماً جانباً كبيراً من أفكار بلزاك الذي كانت تقلقه بصورة أساسية قضيتان: الوجود والروحانية، خلود الروح. ويستدعي مثل هذا الاهتمام لدى شاب في الثامنة عشرة من العمر التقدير الذي كان بإسكال يكنه لهؤلاء الذين يتفعلون معه. وقد اقتنع بلزاك بتفسير علم النفس الفيزيولوجي «كابانيس» (Cabanis) المتوافق مع فلسفة القرن الثامن عشر الجدرية واعتنق الاتحاد أو التآلية (مذهب التأليه الذي يقر بوجود الله وينكر الوحي والآخرة) المهمة إلى حد تبقى معه غير فعالة على صعيد الضمير الانساني. وقد دون أفكاره في (ملاحظات حول خلود الروح والدين والفلسفة).

لماذا يجب أن نكرر الحديث عن الحياة القاسية التي عاشها الكاتب المبتدئ عام ١٨١٩ في شقته شارع ليدي جيار (Les diguières) القذرة؟ من الأفضل أن نتابع حبو فكره وخطواته الأولى. لقد استعمل هذه الملاحظات في محاولاته الرومانسية

الأولى (فالتيرن) (Falthurne) وخصوصاً استرني أو الأخطاء الفلسفية (sternie ou les erreurs philosophiques) (١٨١٩).
وتعتبر هذه الأخيرة رواية تراسلية تأثرت إلى حد ما بأنفاس إليز
الجلديدة (la nouvelle Héloïse). وتوازي كل رسالة
موضوعاً فلسفياً (ألفه طالب الفلسفة بلزك). وتدل الحجج على عبثية
مبادئ علم اللاهوت الكاثوليكي وخصوصاً مبدأ وجود الله والروح
والجمال ووضوح الحقائق القياسية التي تفوق الحقيقة المكشوفة والمعروفة
وتتفوق عليها. كذلك نجد ان بطاقاته الناعمة مغمسة بأريج الماورائية.
وقرب هذه الصفحات سياء مؤلفها المعنوية. فهو يحلل نفسه. ويحدد
وضع إبحاره الفلسفي ويقيم موضعه الأخلاقي والديني والعاطفي في نهاية
الرحلة لدى وصوله إلى ميناء الملذات التي يوفرها له الحب الزنديق
بعد أن يقضي على كل مبادئ الإيمان والأخلاق المسيحية في روح
عشيقته لدفعها إلى الزنى بصورة أبسط. «استيني» هي أولاً ملف
انساني وفلسفي من الدرجة الأولى وهو يقذف فيها حزمة من الضوء
والشعاع على مركز مريح استغل إلى أبعد الدرجات في «الكوميديا
الانسانية» كما في ساروفيم الملاك الطاهر.

لا بد من الإشارة إلى الفترة التي عاشها بلزك في مكتب
الكاتب العام ١٨١٧ في مكتب كاتب عدل العام ١٨١٨ لأنه
سيحي أجواءها في عدة روايات وخصوصاً الكولونيل شابر
(Colonel Chabert) «وبداية في الحياة»
(Un début dans la vie). وسيستغل المؤلف ملاحظاته على

سياء الزبائن التي كان يقرأ فيها الانحطاط والبؤس ، وعلى اخلاق
الكعبة ، وسير الاجراءات وجهاز العدالة وجلسات المحاكم ...

نجد أن بذور أفضل نتاج بـلـزـاك الأدبي ، على الأقل ، فيما
نخص وسائل الفن والتعبير في مؤلفاته الأولى التي تشكل مجموعة من
اثنين وثلاثين مجلد صدرت في الفترة الممتدة بين العام ١٨٢١ والعام
١٨٢٤ تحت أسماء مستعارة مختلفة «لورد رهون»
(Lord R'Hoone). «أوراس دوسان أوبـــــــان»
(Horace de Saint Aubin) ، «فيلارجليه» (Villerglé) ، (وقد
صدرت تحت عنوان مؤلفات أوراس دوسان أوبان الكاملة لدى
الناشر سوثران. في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠) وهي
« وريشة بيراغ » ، «جان لويس» ، (الفتاة اللقيطة »
(la fille trouvée) «كلوتيلد دولوزينيــــان»
(Clotilde de Lusignan) (اليهودي الجميل) (le beau Juif)
«العبد المشوي» (اثنان من عائلة برنجيلت)
(Les deux Beringheld) «كـــــــاهن الاردان»
(Le vicaire des Ardenne ، «الخيبة الأخيرة» (la dernière fée)
(المصباح السحري الجديد) ، «انيات والمجرم»
ملحق لكاهن الاردان التي أعيد طبعها عام ١٨٣٦ تحت العنوان
الأكثر شهرة (أرغو القرصان) «وان كلور» Wann Chlore التي
أعيد طبعها تحت عنوان جان الشاحبة. ويطلقون عليها عادة اسم
مؤلفات الشباب (œuvre de Jeunesse). كذلك سيمثل رفاقه

أصحاب المصنفات المختلفة المواضيع والذين لم يحققوا في غالبيتهم تطلعاتهم إلى الشهرة كـمـاذج في «الكوميديا الانسانية»؛ فينو (Fino) في (قيصر بيروتو)، لوستو في (ربة فن المقاطعة)، لوسيان دورينبريه Lucien de Rubempré في (الأوهام الضائعة).

لقد أسرّ بلزك إلى شاتفلريه (Chamfleury) قولاً بات اليوم يعتبر تبجحاً من الماضي: «لقد كتبت سبعة روايات بسيطة كالدراسات، واحدة لا تعلم الحوار، والثانية لا تعلم الوصف، والثالثة لا تعلم الجمع بين الأبطال، والرابعة لا تعلم فن التأليف...» ونتيج هذه العبارة للنقاد، اعتبار هذه المحاولات تجارب والبحث للعثور على النموذج الذي يجهد الطالب بنقل بعض سبله التقنية. وقد تحقق من هذا الأمر ألبير بريو (Albert Prioult) في (بلزك قبل «الكوميديا الانسانية» وموريس برداش (Maurice Bardèche) في (بلزك الروائي) وقد سجل الأول بدقة أسماء كافة الكتاب الذين حاول الكاتب الشاب المبتدئ مجاراتهم ودون الثاني كافة أسرار طريقة الصنع التي اخذها عنهم حرفياً لاكتساب أسرار المهنة: لقد درس بلزك الرواية واستفاد... إلى عهد قريب كانوا لا يتحدثون عن نتاج الشباب إلا لوضعه في أقل المرتبات وتعريته من كل أهمية وتجريده من كل قيمة أدبية إلا ان هذا الأمر لم يعد مقبولاً اليوم؛ فقد بدأ الشاب المندرج باختيار أساتذته وقد أعلن هذا فيما بعد على لسان «جوزيف بريو» (Joseph Bridau). في (معركة المياه): «لقد كان يكثر من المطالعة ويوفر لنفسه هذه الثقافة العميقة الرصينة التي لا نكتسبها إلا

بأنفسنا ، هذه المعرفة التي ينهل منها كافة الموهوبين في الفترة المتراوحة بين العشرين والثلاثين من عمرهم . وفيما يلي بعض المراجع التي أشار إليها هو نفسه : بيرون (Byron) ، فني مور كوبر (Fenimore Cooper) ، آن رادكليف (Anne Radcliffe) ، ماتيران (Maturin) ، وولتر سكوت (Walter Scott) (الذي سيكون تأثيره حاسماً وعميقاً) ، رابليه (Rabelais) ، موليير (Molière) ، ديدرو (Diderot) ، مونتسكيه (Montesquieu) ، لوك (Locke) ، جان جاك روسو (J.J. Rousseau) ، برناردين دو سان بيار (Bernardin de Saint Pierre) ، بومارشييه (Beaumarchais) ، شاتوبريان (Chateau Briand) ، دو كريك - دومينيل (Ducray Duminil) ، بيجو لوبران (Pigout Lebrun) ... كذلك تناولت قراءته عدداً كبيراً من مؤلفات الكتاب المنسبين اليوم . وكان يحاول دائماً أن يضع مؤلفات على غرار هذه الفنون الأدبية المتنوعة كروايات المغامرات ذات الحبكة الغرامية ، والرواية التاريخية ، ورواية المغامرات والرواية العاطفية ، ورواية الرعب ، والرواية الخرافية ، والرواية المفزعة والرواية الغمائية (التي تتحدث عن حياة المشردين) . وتوفر له احداها أو الأخرى مخطط مؤلف أدبي للتمرين وفكرة رئيسية قابلة للتقليد : المحاكاة الساخرة ، الحوار الضاحك أو المأساوي ، والوصف الخ ... ويعتبر «أرغو القرصان» (١٨٢٤) محاولة لكتابة رواية نفسية . ويمكن الأخذ به كدليل على التقدم الذي حققه في بناء الميزات والعقدة باللجوء إلى

الاهواء وليس إلى التقليد والتزييف الفاضحين. كذلك فهم شيئاً فشيئاً ان أفضل مصدر للروائي هو نفسه بعيداً عن كافة التقنيات. وكان يسكب تجاربه الشخصية ومفاهيمه في الحياة ومحيطه الخاص في الخليطة التي يقدمها له التقليد. لقد ألقى وسطه العائلي في الحلبة وافتتح به معرض الرسومات المكرسة لأصدقائه الموثوقين.

أطلق أحد سماسرة الأدب أوراس ريسون Horace Raison عام ١٨٢٤ موضة المصطلحات الأدبية وقد استخدم في ذلك بلزак الذي كان في بداية شهرته الأدبية فنشر عام ١٨٢٥ «مصطلحات المستقيمين» Code des gens honnêtes. وقد حث هذا النوع الهجائي قريحته ففندها في قوانين مختصرة. كما في المصطلحات القضائية، العادات والمخطورات الاجتماعية. ولما أصبحت أكثر حدة قوة ملاحظته، وصف بعناية عالم النفس الفيزيولوجي وفسر التفاصيل الخارجية للشخص والمواقف والملبس والأثاث واعتبرها إشارات وبيانات إيجابية عن الطبع الأخلاقي. فنذ عام ١٨٢٢ باشر بلزак قراءة ملف لافاتيه (Lavater) حول «فن معرفة الناس من خلال سحتهم» وقد طبق مبادئه بقناعة إلى درجة لم يتردد معها في إيجاد تفسير واقعي لمشائم بعض الشيء للحياة الاجتماعية التي تعتمد على المال في كل حركة، في كل ادعاء، في كل تعبير وجه. هذا فيما خص معنى الفكرة أما فيما خص معنى الشكل فان هذه الخطوط السريعة وهذه الأطياف البشرية تعلن عن عدة مراحل وعدة شخصيات من الكوميديا الإنسانية.

بعد المال أتى الحب. وفيزيولوجية الزواج التي صممت عام ١٨٢٤ وكتب نصفها عام ١٨٢٦ لن تظهر بشكلها النهائي إلا عام ١٨٢٩. وهي تعتبر نقداً «لاذعاً» للعادات المعاصرة له. إنها المأساة الأبدية التي تضرب ثلاثة أشخاص منذ ظهور الأنفى أمام الزوجين في عدن ورغم كثرة الاقتباس فيها، فإن هذا الإنتاج يدهش بقوته في الملاحظة والتحليل. هذه القوة غير الشائعة لدى كل كاتب شاب. وأي تشاؤم في النظرة إلى الزواج نجد فيها، فقد تجاوزت السخرية الحدود وصبت ادعاءها في كلمات بطرة منمقة معسولة. مما أفقد المؤلف البعد المعنوي الذي أراد صاحبه إضفاء عليه بهزئته إلى حد التطرف هذه المؤسسة الجادة والمقدسة. أما من الناحية الأدبية فقد جاء هذا الكتاب مزيحاً كبيراً.

وبتنا نعرف الآن متى يجب أن ندرس مؤلفات الشباب ورموز المستقيمين. ذلك أن البدء بها هو تجربة مضرة ومخيبة للآمال. وإذا رغب أحدهم بمتابعة تطور الفن والفكر لدى بلزك فلا يسعه ذلك إلا إذا عاد إلى البعيد إلى مرحلة التجارب والتردد والتجارب المتكررة هذه.. لا بد له من الخروج من مرحلة الكوميديا الإنسانية الباهرة والتوغل في ظلمات البداية لنجد فيها هذه الصفحة أو تلك المليئة بالوعد السعيدة.

أهل بلزك في الفترة الممتدة بين عام ١٨٢٥ وعام ١٨٢٨ الأدب وانصرف إلى النشر والطباعة فقد كان يرغب في الإثراء السريع إلا أنه خرج من هذه المغامرة المأساوية محكوماً عليه بالبؤس

الفوري وبحياة مستقبلية - وهذا أسوأ ما في الأمر - مليئة بالتدابير المالية والحجج. ونلاحظ في هذه المناسبة قدرة الكاتب على إعادة توفير أجواء الشجون المحيطة به بغمس المغامرات الخيالية فيها.

لقد وضع رينيه بوفيه (René Bouvier) وإدوار مينيال (Edward Maynial) في حكايا بلزاك المأساوية (Les contes dramatiques de Balzac) ، قصة هذا الإفلاس مفصلة والمشاكل التي خلفها لهذا الصناعي المتهور ، ضحية قصوره المهني ، وهي تبرز بوضوح شائبات ميزة تتزع بصورة طبيعية إلى الترف والتبذير.

لندرس آثار هذه النكبة التجارية على تاريخ عظمة وانهار قيصريروتو.

L'histoire de la grandeur et de la décadence de César Birotteau حيث استغل الكاتب خبرته التي اكتسبها كمتنمر في مكتب كاتب العدل واستفاد فيها من ذكرى محنته وقلقه حين كان يتخبط شرفه وشرف عائلته بين ابن العم سديو (Sédillot) المكلف بتصفية مطبعة بلزاك والمستحقين. ولا تفاجئنا دقة استعمال التعابير القانونية ولا معرفته بتطور مراحل هذه العملية القضائية ولا عمق تحليل نفسية المفلس ، فهذا الضمير كان ضميره قبل أن يكون ليروتو ، لقد لاحقه هذا الشعور ومزقه الخوف من الغد والفرع من المرابين ورجال القانون والمدينين. وقد وفرت له تجاربه كناشر ومفلس ملفات سيستمعها أيضاً في الحظر (l'interdiction) مجلس

القدامى ، والأوهام الضائعة. وتتسم تأملاته بالصدق كذلك يقود تحليلاته النفسية بثقة كبيرة ما كان يملكها لولم يمر بهذه التجربة ، فهو يضع الحكايات دون أن يمكن القول أن شيطان الشعر الخلاق هو الذي يوجهه ويلهمه. إنه يسترجع ذكرياته ونحن نسترجعها معه وما قد بتنا المؤمنين على أسرارهم. وتصطبغ لذة القراءة بالجدية. وتثرى بالأحاسيس لأن أصدقاء شكواه تتردد من روحه إلى أرواحنا وتخرقها وتسبها.

وهكذا نجد أن حقيقة السيرة الذاتية تختلط بالخيال في عدة روايات وتلهب الحكبات حساسية بلزك وتحيي أجواء سعادته وآلامه في كافة مراحل حياته ويهب الأبطال بأسمائهم المستعارة من أحلامه بوجوههم المعروفة المحبوبة أو المكروهة. ونحن لا نحاول إخراجها من ظلمات السر والغموض لإشباع فضول الباحثة بل للشعور بلذة شهادة المعجزة الفنية الكامنة في التحول الأدبي :

توجب على بلزك عام ١٨٢٨ الإهتمام بكسب حياته بعد أن زال خطر الإفلاس فالتفت إلى الأدب ليرتبط به بصورة نهائية. ويروج في ذلك الحين إعادة كتابة التاريخ ولم تكن محاولات بلزك الأولى وريشة بيراغ (l'héritière de Birague) كلوتيلد دولوزينيان (Clotilde de Lusignan) (١٨٢٢) ناجحة وكان يقسو في الحكم عليها. خطر له الإنصراف إلى قراءة مذكرات الثورة وحرني فاندنيه (Vendée) فشغف بها والتهب خياله وجاءت رواية التأثير الملكي الأخير أو برينانيا عام ١٧٩٩ ، والتي سماها فيما بعد

الثوار الملكيون ، التي اعتبرها الرواية الأولى الجديرة بالإنتساب إليه فوقعها .

ولم تعد معلومات الكتب تكفيه وقد ابتكر وسيلة التوثق التي سيلجأ إليها فيما بعد بذهابه إلى فوجير (Fougère) ليتشبع من الأجواء التي تدور فيها أحداث وجبكت الرواية التي يصفها . لقد باتت عيونه تحتاج إلى تأمل المناطق التي يريد وصفها ، وصارت أذناه تنوق إلى سماع أصوات الناس في محيطهم . لقد سألهم وجعلهم يتحدثون واستمع إليهم وجمع التعابير المستعملة في الناحية ولاحظ عادات الناس فيها فبات بوسعه إعادة بناء المأساة على حقيقتها في الطبيعة التي تتحول إلى شخصية أسطورية يستمد منها الأبطال دوافعهم ويتحدون معها في غلبان مشاعرهم . لقد فهم ان لا شيء يضاهي كون المرء حقيقياً صادقاً فترك الواقعية الطبيعية تغزو وتحتاج كيانه بكامله قبل أن يطبعها بالشاعرية . لقد نزع من المخلوقات الحية أو الجامدة والأجواء المحيطة به حتى اللامرئية منها أسرارها ومعانيها وفاجأ الهمسات الغامضة التي تتخذها وسيلة للإتصال بفكر الإنسان ، وكاد يؤمن بالقيمة الحقيقية لهذا التزجان الروحي ، فعلى كل مفترق طريق تبرز عبقرية بريتانيا وتنبجس متنبه كنصير يشجع خطوات العاشقين مونتوران (Montauran) وماري دو فرنيل (Marie de Verneuil) . أو أنها تحبثان وتلبدان خلف كل دغل (مجموعة من الجنبات البرية والمتداخلة الأغصان) ، صابرة كجاسوس يود إفساد مناوراتهم . ويرى البعض أن «كل» فينمور كوبر (Fenimore Cooper) كامن هنا ،

وخدع الثوار الملوكيين هي تكرار لحيل الموهيكان (Mohicans) .
كذلك يعلن بلزك ويدل على كل والتر سكوت
(Walter Scott) باتباعه حرفياً تعاليم استاذة . فقد عمل الروائي
بدلاً من نقل شخصية عظيمة أو حدث تاريخي ضخم على تفسير
الأسباب والعلل بصورة عامة بوصف عادات كل الناس وأفكار ذلك
العصر .

لقد رسم بلزك خطوطاً عريضة في خلفية لوحته وهذا بصورة
واضحة يطلعنا على إثاره السياسي . لقد اختطها باللون الأزرق أي
الملكية الليبرالية العقائدية .. فنازعه البعض وساق دليلاً ضده لامبالاته
فيما خص الدين رغم أنه في الوقت الذي كان يضع فيه مؤلفه في
قصر فوجير (Fougères) لدى آل بومرول (Pommereul)
كانت مناظرانه الخطائية الملحدة مع مضيقته دلائل واضحة على
فولترته (تعلقه بفولتير ونحمسه له) . ويعلن الأمر الشجاع هولو
(Hulot) والكابتن ميرل (Merle) والرقيب جيرار (Gerard)
« هذه النفوس المؤيدة للجمهورية بحق « المتفانية فعلاً » التزمية القوية
يعلنون عن هدف مهمتهم المزدوجة « إنقاذ العقائد والوطن » ومبدأ
الحرية والغزوات من « المنطق الإنساني الذي أيقظته جمعياتنا العامة .
وقد أنزل معتقدات الفلاحين الذي يستشهدون للدفاع عن
كاثوليكيتهن إلى التيمية (عبادة الأشياء المسحورة) و « التعصب المظلم »
و « التطير » . لقد منح اليسوعي والموجه غودين (Gudin) نفساً جشعة
طموحة متعصبة مفرطة في التفضيل الماخن فجاءت صورة هزلية تبرز

أكثر بالمقارنة بالصورة الباهتة والكامدة التي مثل بها الكاهن الذي
بصر على الحفاظ على العادات القديمة المتدنية رغم المخاطر.

• وماركيز مونتوران (Montauran) شجاع وكريم إلا ان ثقل
هواه الجنون وانتصار حبه يؤدي إلى فشل القضية التي يدافع عنها.
فهو ليس إلا دمية زائفة بالنسبة إلى القائد الحقيقي... وظهرت ميزات
الأمروهولت (Hulot) هذا المواطن العظيم بمظهر الفخور المحجب. أما
بقية الأنصار من النبلاء الطائشين فانهم يدون كمدافعين تافهين عن
التاج والمذبح. فهم يلجون على رئيسهم ليزكهم إلى الملك ولا يحلمون
إلا بالمناصب والمغانم والأوسمة الرفيعة والإميازات.

وتبدو النكات الماحجة التي يطلقها الكونت بوغان (Beauvan)
أمام المذبح خلال قداس تكليل مونتوران (Montauran) وماري
فرنويل (Verneuil) كرهية تحرق القديسات في مثل هذه
اللحظات الرزينة القريبة من الله وجه الحق. وأكثر المشاهد إيجاء
وأكثرها دلالة في الرواية هي قداس «الثوار الملكيون» الذي يعقد ليلاً
في فرجة غابة ويشبه بلزك هؤلاء الفلاحين الجائنين بأسلحتهم أمام
هوستي (Hostie) بالمتوحشين الفظين الراكعين أمام تيميتهم (كل
فينيمور كوبر) (tout Fenimore Cooper) فهم لم يكونوا يشكلون
بالنسبة إليه إلا حدثاً وليس نظاماً وكانت العبادة صلاة ولم تكن
تديناً. وهو يرى أن هذا الاحتفال المقدس بانه ملهاة تهدف بنظر
منظميها الذين انتهكوا الإكليروس وفضلوا عليه المصالح السياسية «إلى
تحريك أهواء النفوس الفظة». لقد تحول صليب المسيح المسالم إلى أداة

حرب . وهنا يطلب من الأجواء التاريخية تفسير الحدث حيث يشوهه الروائي بتضخيم الشوائب وتجسيمها ويحرفه بمحصر البعد السماوي للمأساة الخارقة بالأرض ، فهو لا يتأمل منها إلا زخرفتها ولا يسند إلى الثورة الملكية البطولة الرائعة والعنيدة إلى الإيمان الجموح لعدم تعاطفه معها .

حين أعاد بلزاك قراءة رواية « الثوار الملكيون » بعد عدة سنوات نقل إنطباعه إلى السيدة هانسكا (Hanska) « أنها قصيدة رائعة ، رفيعة الأهواء جليلتها ، وصفت فيها المنطقة والحرب باتقان وسعادة فاجأتني . ! المنطقة والحرب هي ظاهر المأساة ، والأهواء السامية هي الحافز السري ، إنها شغف بلزاك بالسيدة برني (Berny) أولاً في الطبعة الأصلية ثم بالسيدة هانسكا في طبعة عام ١٨٣٤ وقد أدخل عليها التعديلات . دالبطة ماري تتمتع بالسر والجاذبية والخطوة وحتى بالعفاف العذري . « وهذا التغير الجريء للمخلوقة الساقطة السافلة والجاسوسة المسترة والعاشقة العظيمة ، يظهر ميول الشاب الباحث عن السعادة الهائمة ، واضطرابات حبه الأول . وكان بلزاك يمنح أبطاله كل الجاذبية التي يراها ويحلم بها في ظل وجه المحبة ثم الغريبة ... كانت قصيدة أفراده الحميمة ، كذلك كانت التحام كل محاولاته الأدبية السعيد . فالمادة التاريخية التي منحها له بريتانيا والثورة الملكية قد أتاحت له استعمال الجناس والتطابق في الوصف والأفكار والميزات .. كما كانت كل شخصية تمثل نموذجاً وتعبر عن طبقته الاجتماعية . فونتوران (Montauran) الشاب الأنيق الشجاع يعطي

صورة جميلة عن الطبقة النبيلة الفرنسية ، وغودين الكاهن المتعصب يعطي صورة عن رجال الدين في هذه المناطق ، الأمر هولو (Hulot) الجندي المعجوز ذا الوجه العبوس يعطي صورة حبه عن هذه الجمهورية. فثل الثوار الملكيون التي تدل كنيها على أصولها الشعبية مثل غالوب شوبين (Galope Chopine) بيل ميشي (Pille-Miche) وخصوصاً مارش أثير (Marche-à-terre) الفلاحين المترمتين بصورة خاصة. وكاد هذا النهج أن يتحول إلى قاعدة مستقرة كإحياء الطبيعة. أخيراً نجد أن كل شيء كان يعج بالشباب ، تدفق الأسلوب ، الكلمات الملونة ، اللوحات المتفوقة الرسم ، التصريحات الساذجة أحياناً والآراء ذات الإدعاءات الفلسفية أو المعقدة .

في نفس الوقت كان بلزاك ، يفتح الرواية البوليسية فقد أعد فوشيه (Fouchet) موآمرة وأرسل إلى الجاسوسة أحد عماله كورانتان المراوغ الذي سيدفع إلى إعتقال غا (gas) قائد الثوار الملكيين. وكان بلزاك يقدم بهذا للفصول التي سترها فيما بعد في الفندق الأحمر (l'auberge rouge) المستدعي (la requisitionnaire) قصة غامضة (une ténébreuse affaire) عظمة ويؤس العاهرات (Splendeurs et Misères des Courtisanes) الوجه الآخر للتاريخ المعاصر...

لقد أهديت رواية الثوار الملكيون إلى تيودور دابلن

(théodore Dablin) بكلمات تنم عن الفخر ، « أهدي إلى الصديق الأول أول نتاج » وكان من الأفضل القول آخر نتاج مرحلة الشباب ، فقد ساهمت بقية المؤلفات بتقديماتها في إثراء التحفة ، تحفة المعطاء . فقد دلت بألوانها المتعددة عن موهبة فذة واثقة من قوتها ومصادرها .

- ٣ -

منهاج الملاحظة والتوثيق

لم تحقق رواية «الثوار الملكيون» التي ظهرت في شهر كانون الثاني من عام ١٨٢٩ إلا نصف نجاح، ولكنها فتحت باب الشهرة التي تكاثفت بصمت مع «فيزيولوجية الزواج» التي حققت نكاتها اللاسعة وتأملاتها الماجنة نجاحاً «صاحباً» لبلازك في الصالونات الاجتماعية.

وقد كسب له في نيسان ١٨٣٠ مجلد فصول من الحياة الخاصة. *Scènes de la vie privée* وهي سلسلة من القصص الواقظة ذات رقة مؤثرة معدة للنفوس الشابة. للفتيات كربات الأسرة لتجنبن سكب «دموع الدم» الجمهور النسائي بصورة نهائية. خصوصاً وأن «الفيزيولوجية» كانت قد أثارت فضولهن وهيجت دوامة واسعة. فانطلقت شهرة الكاتب تفرز بينهن وتدعمها الحجج القوية. وقد جاءت رواية غشاء الكتابة عام ١٨٣١ وهي مؤلف ظرني وعبارة عن نقد واسع ولاذع للأخلاق المعاصرة بفضيحة جديدة متوجة بانتصار أدبي حقيقي.

عام ١٨٣٢ كان بلازك الكاتب المشهور الذي تفخر سيدات القصور باستقباله في محافلهم ويعتز مدير المجلات والصحف في

إصدار رواياته في موجزاتهم وكانت الطلبات والمواضيع تنهر عليه . وقد أصبح عشيقاً للدوقة دابراتيس (D'Abrantes) يرتاد صالون السيدة ريكاميه (Récamier) ويلتقي فيه مع الأميرة باغراتيون (Bagration) والكونتيسه غيدوبوني منيسكونتي (Guidoboni Visconti) والكونتيسه ميرلسين (Merlin) والسيدة جيراردين (Girardin) والسيدة هاملين (Hamelin) والكونتيسه أغو (Agout) والماركيزة فيترجليمي (Fitz James) . لقد اعتبر بلزاك أن الهالة الارستقراطية فتنة انسانية لا تقاوم ولوحظ عليه هذا الأمر بسرعة فقد كان غالباً « ما يشاهد ملازماً » للسيدة دوكاستري (de Castries) الرائعة الجمال راعية القيم الأدبية التي تحيط بها أسطورة من الحب الحزين واللاجئة الى الملذات الفكرية . وقد أثار الألم الذي يرسم قلب الكاتب الشاب الفخور إلا أن المغامرة انتهت على شكل مزعج بعد عدة أشهر . وقد انتقم العاشق المبعد لقلبه الجروح فجسد في دوقه لانجيه (١٨٣٣) (La duchesse de Langeais) الفنج الماهر في التخطيط والفتنة التحذقة ، والمناورات الماكرة التي كانت تمارسها سيدة متهورة في ضاحية سان جيرمين (Saint Germain) ، لقد تحول بائس القلم من أجلها فتأنق ووفر حياة مترفة باذلاً جهوداً مضنية ، وانتسب من أجل ابتساماتها الى حزب هذه الجماعة « حزب الشرعية الجديد » متحدياً لوم أفضل صديقتين السيدة برني وزلمي كارو العنيف . ولا بد من التذكير أيضاً « أنه كان يعرف كيف يدير المحادثة فيجلب

اللذة ويوفر التسلية المبهجة التي كان يعتبرها أحد الأجناس الأدبية (دراسة مختلفة عن المرأة) (Autre étude de femme) ، عينة من المحادثات الفرنسية (Echantillon de Causeries françaises) ، محادثات بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل.

Conversation entre Onze heures et minuit.

لقد جعلت منه قريحته المطلقة العنان وبريق عينيه الجذاب ذات اللعنان الذهبي كما يقول تيوفيل غوتيه (Théophile Gautier) وإيمائتته وحركاته المعبرة وخياله كلها جعلت منه محدثاً ساحراً وكان يعرف كيف يكون مستمعاً متنبهاً أيضاً.

لقد أصدر بلزك كافة مؤلفاته عام ١٨٤٣ تحت عنوان عام هو دراسة العادات (Etude des Mœurs) وضعها في ثلث فصول من الحياة الخاصة ، فصول من حياة الريف ، فصول من الحياة الباريسية ، فصول من الحياة السياسية فصول من الحياة العسكرية . وقد قدم فيليكس دافان لها (Félix Davin) .

واعترف بلزك بأن صديقه قد قدم للوثائق وألهمها . وقد تحمل مسؤولية كافة الآراء الواردة في هذا البيان الذي راجعه بدقة وأعاد تصحيحه فقد جعل من نفسه مراقباً ثانياً وعميقاً «يراقب الطبيعة» ويدرسها بحذر كبير . وكان شعاره أن يرى كل شيء كل شيء ولا يغفل شيئاً . وهو يتحدث أياً كان بأن ينال من دقته في هذه الدراسة للتفاصيل ودقائق الأمور ويعتمد على وسائل مأخوذة من رواياته ليرفض اعتراضات الآخرين بصورة مسبقة أليس من الخطأ الاعتقاد

بوجود مثل هذه التجربة لدى مثل هذا الشاب ؟ هل كان الوقت يموزه ؟ كلا فلا بد لبزاك من العمل وفق حدسه .

فقد كان الفريقان يتجاهاان بصورة دائمة . البعض مثل شامفلوري (Champ fleury) ومن بعده كافة الرومنسيين الواقعيين المتمين الى مدرسة إميل زولا (Emile Zola) هؤلاء الذين سماؤا أتباع بلزاك كان يعتبره باحثاً عن الملفات ، ومتقصباً بحدأ لا يعرف الكلل طريقه الى قلبه ، ومنقباً لا يرتوي ومرشداً . والنكات المروية عن أعماله وخطواته كثيرة لا تنضب . وقد كان يدون ملاحظاته على مفكرات صغيرة لا يتركها أبداً . وعمل على تغذية نتاجه بكافة الملاحظات التي جمعها بفضل ملتبه . والبعض الآخر مثل فيلاريت شال (Philarète Chasles) دينواريتير (Desnoiresterres) كان يعد في بلزاك متكهنأ ، مدركا بالحدس ، بصارأ . من كان سيتحيز للواقعي أمام سانت بوف (Sainte Beuve) كما فعل كل من تيوفيل غوتيه (Th. Gautier) وادمون غونكور (Ed. de Goncourt) خلال حفلة عشاء لدى آل مايني (Magny) العام ١٨٦٣ كان سيحصل على الجواب التالي : « هذا خيال ، هذه اختراعات » . استمعوا الى تأويل وشرح حديث لـ « ليون إميري » (Léon Emery) : « يدعون أن بلزاك كان مراقبأ دقيق الملاحظة . أين له الوقت الكافي لذلك ؟ أين هي ملاحظاته ؟ هل تفاخر وتباهى بنقل ما رأى ؟ ألا يتحدث دائماً عن كسبه وكأنها من بنات خياله ؟ » . وبعد تأكيد ماكس نورد (Max Nordau)

الحاسم « لم يستفد نتاجه بشيء من الملاحظة ... فالواقع لم يكن قائماً بالنسبة إليه » ، يبدو رأي أندريه بلسور (André Bellesort) موفقاً : « هل راقب كفاية الأمور التي يحكي عنها ... أنت لا تصدق ذلك ... لقد كان بلزك يملك من الحدس أكثر مما يملك من دقة الملاحظة » . إنها الصفة المناسبة بنظرنا لأنها تقبل بالحدود ، إلا أنها غير وافية لأنها لا تميز المراحل الزمنية . وسيأتي اليوم الذي سيركن فيه الفنان ، بعد تحرره من كل عبودية الى خصب خصب عبقرته وحدها . «إنني أحمل مجتمعا كاملاً في أفكاري» .

وتقضي هذه الفرضية على التأكيدات المناهضة لبلزك . فليس من الضروري البحث طويلاً في بعض روايات الكوميديا الإنسانية المتتقة عشوائياً لإبراز عادات المؤلف ، والكلمة ، والموضوع . «تتوفر مادة واسعة ، وهي معروضة على هؤلاء الذين يودون مراقبة أو رسم مختلف المناطق الاجتماعية ...» (دراسة مختلفة عن المرأة) . «ترتبط أحداث الحياة الانسانية العامة أو الخاصة بصورة حميمة بالهندسة . حتى أنه يمكن لأغلب المراقبين إعادة تشييد الأمم والأفراد في أصدق عاداتهم مستندين الى آثار أبنيتهم العامة ومعتمدين على دراسة بقايا منازلهم .» (البحث عن المطلق) . «لا بد لمنع النقاد من الإسراع بالحكم بالطيش والدفع به من الإشارة الى ...» «يلقى الباحث نفس السخرية في كافة مراحل المجتمع ... ولعل الباحث يفهم الحقيقة حين يقارن عمق الدعاية الرائجة بكل مراتبها انطلاقاً من

السوق في باريس وصولاً الى الاقطاعي... وأورد هذه الملاحظة لعل البعض يفهم...» إن هذه الجمل والعبارات مأخوذة من نفس الفقرة. (دوقة لانجيه). لقد وضع بلزاك في (السيدة فيرمياني) وسط الاحداث «عجوزاً» يسمي إلى فئة المراقبين الباحثين. ويمكننا أن نكرر هذه التجربة في (الكوميديا الانسانية فنجد أن بلزاك يسمي الى نفس هذه الفئة. لنعد عامين الى الوراء الى العام ١٨٣٠ ، الى بداية رحلته في التأليف، ولتصفح مجموعة) (التاج المتنوع

Euvres diverses

(. هل يريد أن يستريح بعد

عناء عمل طويل ومتواصل استمر عدة ساعات؟ «إنني انصرف» حينذاك «الى التسلية التي تمنحني إياها الطبيعة في الخارج» و«توغل نظراتي بمنة ويسرة لدى جيرانتي. وأبدأ بالمراقبة...» هكذا تستهل رواية (البطال والجند l'oisif et le travailleur وقبل أن ننتهي نبرز إحدى ملاحظات فيليكس دافان بأنه يعطي «الحياة للملاحظات لافاتيه (Lavater) بتطبيقها». ونقتنع بذلك عند قراءة

(الفزيولوجية الذواقية) (la physiologie gastronomique) . فهو يبدأ هذه الرواية بإيراد ملاحظات حول هذا العلم المفيد. والعميق. واللذيذ، الذي اكتشفه لافاتيه وغال Gall . فحين يطبق نظرياتها للتمييز بين مختلف أنواع الدواق ومباشرة «التفتيش المتروي عن سيئاتهم وهشمتهم وحركاتهم رغبة منه في تحليل كل ملاحظتهم» يعلن

بلزك وقد أضاف الى عمره عشر سنوات «منذ أربعين سنة وأنا أراقب الآكلين» وقد وصف هذا في (الفندق الأحمر). إنه يراقب أينما كان ، في الطرق . في العربة ، في الكوخ ، في الصالونات وفي الكنائس . خلال الليل والنهار فهو يريد كشف الاسرار المخبئة وراء ستائر المنازل . ويعدد لنا كافة الاسرار ويأتمنا عليها . فهو يلاحظ كل ما يفلت من النظرات اللامالية والعيون اللامكترثة . ويعرض علينا نتائج تقصياته في (البقال l'épicier) و(السيدة توتانديو Madame Toutendieu) و(غابة بولونيا Le bois de Boulogne) (من حياة القصر) (de la vie de château) ، (الاستشارة) (la Consultation) (الشهباء) (La Grisette) ، (يوم الأحد) (Le Dimanche) ، (حياة في العالم الكبير) Une vie di grand monde ، (الساعات الحية) (Les Horloges Vivantes) ، الخ .. وهذه الأسماء موحية بمجد ذاتها .. فهي تنقلنا في كافة ادوائر مجتمع عام ١٨٣٠ . وهي كلها من الأشياء المربية .

وكان يعلق عليها أهمية تساوي تلك التي كان يدعي إكتسابها منها . ويأخذ في عقد الزواج على بول ما ينر فيل (Paul de Mannerville) عدم قدرته على «اكتشاف في موقف وسحنة وأقوال وتصرفات «خطيبته» الظواهر التي تدل على أكمة النقائص والعيوب التي تدخل في سمائها ، ككل كائن انساني» ، وكان يتوجب لذلك على بول «أن يملك ليس فقط علوم لافاتيه وغال بل أن يطلع أيضاً

على علم بلا مذاهب مجمعة ، علم المراقب الفردي الذي يتطلب معرفة شبه شاملة . ثم يكشف ماذا كان بوسع إنسان حاذق باستعمال مبضع التحليل أن يستشف لدى ناتالي . الا أن ناتالي شخصية خيالية ، وهي تدوين بخطوطها البيانية المميزة الى استقصاء الكاتب الذي يدعي كشف أعماق النفس ، وانعكاساتها على قسيمات الوجه ومنحنيات الطيف وبنيته . ونستدل على هذا من الملاحظة القائلة أن أكثر المراقبين تمسأً يمكنه أن يتنبأ . ويلاحظ إشارات أساسية حيث لا يلاحظ الآخرون وجود شيء خارق . وتضم (سارازين) (Sarazine) و (الفندق الأحمر ملاحظات مشابهة .

هل من يعقل القول أن هذه التأكيدات المكررة ، التي أوردنا منها بعض العينات العشوائية ، تهدف إلى الاستخفاف بالقارئ فقط ؟ ان بلزك يستأثر به اهتمام واحد الا وهو أن يرى كل شيء ، وأن يسجله لوصف الطبيعة والأشياء والناس كل هذا بهدف اظهار أسرار حياة ثانية أكثر سرية .

والآن لننظر إليه كيف يعيش . لقد كان يدعي أن قوة ملاحظته استمداد طبيعي دعمته التجربة « النفوس المهملة والفقراء هم وحدهم الذين يجيدون المراقبة .. أنهم يعرفون كيف يراقبون لأن كافة الأمور تصدمهم » المراقبة وليدة المعاناة . فالذاكرة لا تسجل جيداً إلا الألم . « ويتعلق هذا السر الذي أدلى به إلى السيدة هانسكا (١٨٣٣) بتدرجه في العالم حيث شعر بالمهانة . فهو لم يكن يتردد في اعتبار حياته المستمرة » « سر ما يسمونه خطأ موهبي » . وكان يشكو من

الإهمال الروحي الذي عانى منه في طفولته بسبب والدته. وبارك هذه اللامبالاة التي عودته منذ الصغر على إيجاد لذة في الوحدة ، و «مراقبة الحشرات» و «النظر إلى نجمة بشغف فضولي» يرده الى «حزنه المبكر» (الزنبق في الوادي). أليس بوسعنا أن نأخذ حرفياً. بهذا الاسترجاع لذكريات الطفولة: «من لم يتتبع في حياته خطوات نملة، من لم يملأ بالقش الفتحة الوحيدة التي تتنفس من خلالها البزاقة الشقراء؟ من لم يراقب غنج آنسة خافتة الصوت؟ من لم يتطلع طويلاً ويتلذذ بروية آثار الشمس والأمطار على سقف من القرميد الأحمر؟ من لم يتأمل نقط الندى وأوراق الأزهار بتقاطع كؤوسها المختلفة؟» (غشاء الكآبة). مثل رفايل فالتين (Raphaël Valentin) وفليكس فاندنيس (Félix de Vandenesse) يتأقلم الطفل الملعون بسرعة منذ سنواته الأولى مع ظواهر الطبيعة وتقلب السماء ويراقب كل شيء «إبتداء من قشة العشب حتى النجوم المتسكعة» (الطفل الملعون). كان بلزك يترجم عبر كل شخصية ويعبر عن مظهر عميق من سمائه «حياة الطفولة، الحياة الكسولة» ويضيف «الحياة المتوحشة» فنكاد نظن أنه كان يفكر بقراءاته كمراهق في (القراءات التقوية) هذه القراءات التي غدت أحلامه. وقد وحد أجواء «الغابات البدائية» في (آخر موهيكان) (Le dernier des Mohicans) لفنيمور كوبر (Fenimore Cooper).

لقد أمضى بلزك حياته باثراء ذاكرته بالملاحظات. ومن الخطأ الاعتقاد أنه كان ينكب طوال الليل على عمله ليقضي ساعات

النهار نائماً متعباً. صحيح أنه كان يحتاز مراحل من العمل المرهق وتتابه فورات من الرغبة في الوحدة المطلقة فيعترل عالم الأحياء ويتفرغ لأشباح خياله يضمها إلى مؤلفاته ويلحقها بها. الا أنه فيما عدا ذلك كان يسعد بقاء أصدقائه ويرتاح أمام طبق شهوي وينطلق على سجيته في الأحاديث ويفرح بالتجوال عبر العالم. لتذكر فقط نزواته التي لا تنتهي عبر باريس برفقة ليون غوزلان (Léon Gozlan) بحثاً عن إسم يصف إحدى شخصياته ليلقاه في لائحة محل ، إسم مرصود ، معد له كاسم ماركا (Marcas). وهو يشير في كل لحظة الى سحنة ونماذج المارة الذين تلمحهم عينه المترتبة في الشوارع والطرق. لنفكر بالأوساط المتباينة المتنوعة التي التقاها في رحلاته من باريس إلى روما ، إلى ثورين ، إلى ميلانو ، إلى البندقية ، إلى سان يترسبورغ إلى فيينا ، إلى برلين الخ.. لقد أخذ بلزائك شخصيات الأجانب من رجال ونساء ، والتي وضعها في الكوميديا الانسانية من الطبيعة ، أضف أنه كان يتردد على السفارات ويقيم علاقات مع عدة جاليات أجنبية في باريس.

لقد تحول النهج الذي استهله في رواية «الثوار الملكيون» وأصبح قاعدته الأساسية في التأليف فبات يحرص على زيارة المناطق التي يريد إدارة أحداث قصته فيها إن لم يكن قد زارها وتفحصها بدقة من قبل. وهذا ما جرى «لأنسون» (Alençon) في (الفتاة العانس) وفي (مجلس القدامى) ، و«لبايو» (Bayeux) في (عائلة مزدوجة) وفي (الزوجة المهجورة) (femme abandonnée)

ولد «غيراند» (Guérande) في (بياتريكس) ولد «كروازيك» في (Un drame au bord de la mer مأساة على ضفاف البحر) كذلك وصف «تور» و«تورين» في (الزنبق في الوادي) و(جعبة القنابل) و(كاهن تور) و(إمرأة الثلاثين) و«سومور» في (أوجيني غراندي) و«انجوليم» في (الأوهام الضائعة)، «اسودون» في (معركة المياه) «لجوج» في (كاهن القرية) «سانسير» في (ربة فن المقاطعة) «نيمور» في اورسول ميرييه «يزنسون» في (ألبير سافاروس) «فوريب» (Voreppe) في (طبيب الريف)... وقد بين بعض البحاثه والمنقبين وعلماء الآثار مثل كونتاد (Contade) في ألتسون (Alençon) وإتيان أوبري (Etienne Aubrée) في فوجير (Fougères)، موريس سرفال (Maurice Serval) وألبير أرو (Albert Arrault) و.ج.أ. ويلن. (J.E. Weelen) في تور (Tours) وتورين (Touraine) فراي فورنييه (Fray-Fournier) في لجوج. وتأكدوا من صحة ودقة الوصف الوارد في هذه القصص، وصف الموقع والأبنية والمنازل والطرق، فوجدوا أنه غالباً ما جاء كاملاً ومعبراً ورأوا أنه يعطي الشعور بالحقيقة وإن ابتعد به الخيال عن الواقع. إن مؤلفات بلزاك هي ألبوم من الرسوم، ألبوم جمعت فيه المناظر الحقيقية التي سلبت عليه لبه وتلونت ببعض من نفسه المرتعشة. لم يكن ليكني بتسجيل رآه وآثارها على حساسيته بل كان يستوقف المارة يسألهم عن تفاصيل دقيقة ليضع مخططة.

لم يكن يدرس فقط المناطق بل كان يتروّد بالمعلومات حول
العصور التاريخية ويتوثّق بالمستندات العلمية حول القضايا العلمية التي
يود معالجتها. كان يستعلم ويستخبر ويستجوب الناس الذين عاشوا في
ظل النظام القديم كصديقه دو فيله (de Villers) رئيس دير
كور (Cour) السابق ، والمسؤول عن كنيسة الكونت أرتوا
(Comte d'Aratois) الخاصة ، والدة السيدة برني
(Mme de Berny) وصيفة الملكة ماري أنطوانيت ، أو هؤلاء
الذين عاشوا في ظل الامبراطورية كالدوقة أبرنتيس
(duchesse d'Abrantès) الخ ...

و حين رغب في عرض النظريات الموسيقية في ماسيميلادوني
(Massimila Doni) ، عرف وهو هاوي الموسيقى أن
ذوقه لا يكتفي فقط بل من موسيقى ألماني عجوز ان يعزف له موس
(Moise) لروسي (Rossini) مراراً وتكراراً ليستوضحه
أموراً غابت عنه فيتمكن بهذه الطريقة أن يورد في روايته تحليلاً
طويلاً ودقيقاً. لهذه الأوبرا. وحين أحب وصف أجواء السجن وإبراز
عادات المجرمين ورجال الأمن ونقل أحاديثهم لم يكتف بمذكرات
فيدوك (Mémoires de Vidocq) بل اتصل مباشرة بفيدوك
المحكوم بالأشغال الشاقة الذي تحول الى مدير للأمن وأجرى معه
محادثات وأخذ منها الكثير من المعلومات واستنتج منها الكثير من
الانطباعات التي سيستغلها في الأب غوريو (Père Goriot)
حيث يتسم جاك كولين (Jacques Colin) الملقب بفوترين

(Vautrin) . بشخصية نموذجه القوية والفريدة كما يقدمها لنا
ليون غوزلان (Léon Gozlan) في كتابه (بلزاك في
منزله) (Balzac chez lui) ...

أكثر الروائي من لقاء المحكوم السابق بالأشغال الشاقة ودعاه
الى طاولته في الجاردي (les Jardies) واستمع اليه
وهو ينصحه بالاستناد الى « الواقع » ويحكي مغامراته ويصف حياة
السجناء الكريمة ، ليعود فرايبش (Farrabesche) ويروها
بدوره في كاهن القرية (le Curé de Village) . كذلك
ستشكل الأشغال الشاقة والسجون والتحقيقات والقوانين الجزائية
الأجواء الفظيعة والكثيبة والشريرة التي تحيط برواية « تجسد قوترين
الأفيرة » (La dernière incarnation de Vautrin) (الجزء
الرابع من بهاء ويؤس العاهرات) (Splendeurs et
misères des courtisanes) .

ويعطينا أرغة (لغة العامة) طبقة اللصوص ، من مجرمين وسارقين ،
كل نكهته وصوره الخشنة والمبتكرة والقاسية . فبيبي لوبين
(Bibi Lupin) رئيس قوات الأمن والشرطي لوشار
(Louchard) وكونتونسون (Contenson) وبيراد
(Peyrade) وكورانتيان (Corentin) هي نماذج متفاوتة
الدقة عن رئيس فيدوك (Vidocq) .

أتاح تطبيق نفس المنهج الاستخباري لبلزاك وصف وقائع

عسكرية ، سواء بصورة منعزلة الفرديفو (El Verdugo) الوداع
(Adieu) ، أو بإدماجها في روايات وآل مارانا
(Les Marana) وطبيب الريف (le Médecin de)
(Campagne) وقضية قاتمة ، (Une ténébreuse
affaire

كان بلزك يلتقي أثناء زيارته لعائلة كارو (Carraud)
حيث الزوج هو أستاذ في مدرسة سان سير
(Saint-Cyr) - بضباط الجيش الامبراطورية السابقين
كالضابط بريولا (Périolas) الذي كان يروي لهم مغامراته ،
والجنرال بومرول (Pommereul) الذي كان يحكي لهم
فكاهاته .

وكان بلزك يدون كل هذه الأمور ويسجل التفاصيل المؤثرة
والمدهلة . ونحن نجد آثارها من أفكار ومواضيع ، ومقتطفات ، في
ألبومه . وهناك حوادث تدل بصورة أفضل على السعادة التي كانت
تمتلكه وهو يعرض عن النقص في رواه الشخصية . ففي عام ١٨٣٢
أقام بعض الوقت لدى آل كارو (les Carraud)
القاطنين في مصنع بارود انغوليم (Angoulême) حيث
كان الأصدقاء يأتون لرؤية الكاتب الشهير ، والاستماع اليه وكان أحد
هؤلاء المفوض غران بزانسون (Grand Besançon)
قد قام برحلات كثيرة زار خلالها بلاد الهند وماليزيا وقد استجوبه
بلزك بنهم وعرف كيف يستمد منه عناصر مقال طويل نشر في مجلة

باريس (la Revue de Paris) تحت عنوان «رحلة من باريس إلى جاوة (Voyage de Paris à Java) مقال باهر بروحه، مليء بالقريحة، رغم أن رسم المواقع وعادات السكان المحليين تتسم بالألوان الحقيقية التي تذكرنا بالغربة الرومنسية والفكرة التي يكونها أناس عام ١٨٣٥ عن هذه الجزر البعيدة والرائعة. كذلك لم يرَ بلزك أبداً الزقاق البحري (Fiord) ولكنه وصفه في «سيرافيتا - ١٨٣٥» (Séraphita 1835) بدقة رضي عنها النرويجيون.

الا يمكننا الاعتقاد أنه فكر منذ عام ١٨٣٥ برواية قصة في أجواء شمالية حين اقترح ذلك على الكونتيسة أولترومان (Contesse d'Oultremont.) في مقاله «دُرْجَةُ الآداب»: «يمكنني الإشارة عليك بدراسة ألوان لبونيا المحلية لتصوري لنا قبة جبلية بثلوجها الطبيعية وفجراً شاملياً. لم يسبق لك أن رأيته، والرنة (حيوان لبون) والحسكة، وزيت الحوت وآفاق الثلج والدبيب البيضاء والخراز...»

ولا يمكننا أن نذكر كل الدلائل على العناية التي جمع بها هذه الوثائق حتى بالنسبة للأمور الصغيرة. فنحن نجد أن بلزك يدرس العلوم بنفسه كما فعل بالنسبة للكيمياء في «البحث عن المطلق» (La recherche de l'absolu) والنظريات السويدية في سيرافيتا (Séraphita) والنظريات المغنطيسية والمسربة في أورسول ميرويوت (Ursule Mirouët) وغيرها قبل أن يجعل

أبطاله يناقشونها أو يعيشونها. وهو غالباً لا يستطيع أن يمنع نفسه من إبداء رأيه. لقد كان يحصل على معلوماته من أصحاب الاختصاص ويجهد لاستيعاب المادة العلمية.

تدور القضية التي طرحها النقّاد بعنف حول القيمة التاريخية للكوميديا الانسانية (la Comédie Humaine) ، فإذا كان الجميع متفقاً على اعتبار هذا النتاج الأدبي لوحة ، حية جميلة ، فإن بعض المفسرين يتساءلون عن مدى دقته وتوافقه مع الواقع. وإذا كان هذا المؤلف يحكي كما يدعي بلزك « قصة المجتمع العامل ، قصة فرنسا القرن التاسع عشر الكاملة » ويشكل لوحة المجتمع المأخوذة عن الواقع بكل حسناته وسيئاته ، فإن برونتييه (Brunetière) لا يتردد في الموافقة. كما لا يتأخر تين (Taine) وألبير سوريل (Albert Sorel) عن اعتبار بلزك مؤرخ عصره. فالكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) تورد كل تطورات الحياة السياسية والاجتماعية من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٨٤٨ : الثورة الملكية ، والأضطرابات الثورية. والأبهة الامبراطورية.. غباوة وعناد الطبقة الارستقراطية بعد عودة الملكية. لقد راقب بلزك نشوء القوى المالية ، وصعود البورجوازية ، وانهازية بعض رجال السياسة وتزايد أهمية رجال الأعمال وانهار طبقة النبلاء المتخثرة في ندمها العقيم ، وانتصار التطلعات الديمقراطية وتوثب طبقة رجال الدين الاجتماعي بقيادة لامنيه (Laménais) ومشاريع السيمونية (بيع وشراء

الأشياء الروحية) الجريئة ، والصدمات التي هزت كافة الطبقات الاجتماعية وبدلت مظاهرها في عهد ثورة تموز وفي ظل حكم لويس فيليب (Louis Philippe) يسردها بدقة ووصفها في الكوميديا الانسانية (La Comédie humaine) ودرس أسبابها وآثارها العامة والخاصة .

كذلك اهتم بلزك بالرجال الذين صنعوا الأحداث فذكر عدداً كبيراً من أسماء هؤلاء الذين برزوا لدورهم السياسي أو لفهمهم للحاجات الآتية أو لنفوذهم العلمي أو الفلسفي أو الأدبي أو الفني . كذلك أشار إلى بعضهم تحت أسماء مستعارة ، وعلينا الا نتوقف عند عبثية محاولات تحديد هؤلاء الأشخاص فهي ولا شك تتيح ترسيخ حكم بلزك على الفئات الاجتماعية التي يمتلكها هؤلاء الأشخاص . لتتوقف عند وصف الطبقة الأرستقراطية في فوبور سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي ما زالت صحتها موضع نقاش حتى اليوم . فقد كان سانت بوف (Sainte Beuve) يتهجم على بلزك بعنف « هناك بعض العبقريه وبعض الاختراع في مراقبة العادات - بعض العادات - وإن كان لا يعترض على قدرته في الوصف ... إلا ان العالم مخادع في الوقت الذي يأخذ غوستاف لانسون (Gustave Lanson) على رجال المجتمع وخصوصاً : نسائه أناقتهم الزائفة ، نراه يحصر السجال حولهم ويأخذ على رسام التاريخ عدم دقته في وصفهم . ألم يعتبر تورو دالجان (Thureau Dangin) بلزك (Balzac) في كلمة

الدخول الى مجتمع اللغويين الفرنسي عام ١٨٩٣ 1893 «أكبر
ثلاث طبقات الحاكمة»؟ ورآه عاجزاً عن «خلق نموذج صاف
لسيدة أوفتاة».

ويمكننا توسيع السجال حول المجتمع الأرستقراطي ، ومتابعته
ومقارنته بتاج الآخرين حتى الوصول الى الرومنسيين المعاصرين :
بورجيه (Bourget) ، مارسيل بروست
(Marcel Proust) إميل بومبان
(Emile Baumaun) ، السيد كلود سيلف
(Mme Claude Silve) وغيرهم من الكتاب غير
تهمين بالقدح والشهير لانتائمهم بالولادة الى هذه الطبقة الاجتماعية ،
بالمؤرخين والمعلقين على بداية القرن العشرين .. فيمكننا أن ننصب
أمام مجلس القدامى (Cabinet des Antiques) وبياتريكس
(Béatrix) ، ودوقسة لانجيه
(La Duchesse de Langeais) والزنبق في الوادي
(Le Lys dans la vallée) الخ .. تعب أمامها
المهاجر (L'Emigré) ، المحطة (l'Etape) الفارسة
(l'Eaugère) وغيرها من روايات بول بورجيه
(Paul Bourget) . لنصل إلى النتيجة القائلة : رغم
تفكك الطبقة البورجوازية كان من الممكن أن نلتقي على الأقل قبل
عام ١٩٤٠ - في بعض الأحياء الباريسية أو المناطق الريفية . ببعض
الخلايا الاجتماعية التي حافظت على مجموعة من العادات والتقاليد

المتأصلة بالأخلاق والمؤثرة على سير الأمور والأشخاص المطابقة لما وصفه بلزاك (Balzac) في عهد عودة الملكية إلى الحكم وفي ظل لويس فيليب (Louis Philippe). وقد قال ألبير كاهوبه (Albert Cahuet) عام ١٩٢٠ عن الفارسة (l'Eugère) بأنها أجواء بالية لم تتأثر بتغيرات عصرنا. فقد كانت تغمس بالعظمة الغافية المتطلعة إلى الماضي ، القصور العتيقة في فوبر سان جيرمان (Faubourg Saint Germain) التي تحكمها صلاية المبادئ الجامدة والأعراف البالية. لقد كانت الجدران والزينة وأبهة المراسم تهذب العقول التي ما كانت لتخلو من بعض الطلاقة الوقحة والجرأة والمغلظة باللفظ المعطر. ونستتج أن خلفاء بلزاك قد استشفوا في عادات وصفات الأعقاب نفس الميزات والعيوب التي لاحظها هو. لقد قصدنا أن نستهلك هذا الفصل بوصف الكاتب الذي بدأ تحقيق الشهرة وهو يدخل إلى مواقع الطبقات الفنية الباريسية ، ودليلنا على ذلك أنه تحدث عن هؤلاء الذين رأهم وسمعهم وأن رسومه ولوحاته مأخوذه عن نماذج حية. ونكاد نقول أن المتهجمين على هذا التشابه يأخذون ثأر أجدادهم.

لقد بدأ بعض المؤرخين والنقاد والمتخصصين بالتحقق من قيمة الكوميديا الانسانية التاريخية. ونذكر من بينهم لونوتر (Le Nôtre) في الثورة الملكية النورمندية في عهد الامبراطورية

La chouannerie Normande au temps de l'empire

وهذا فيما مضى المصاعب التي تعرضت لها السيدة شانترى (Le chanterie) وابنتها الوجه الثاني للتاريخ المعاصر (l'envers de l'histoire contemporaine) مازك بلانشار (Marc Blanchard) في «الريف وسكانه في مؤلفات بلزك»

La Campagne et ses habitants dans l'œuvre de Balzac ,
فيما مضى الوجوه الاجتماعية والنظريات الاقتصادية الزراعية الواردة
في زنبق الوادي (le Lys dans la vallée) طبيب
الريف (Le Médecin de Campagne) ،
كاهن القرية (le curé de Village) ،
الفلاحون (Les paysans)

وهناك دراسات ومقالات عديدة تتعلق بالعالم القضائي
la police et ، البوليس ورجال الشرطة ، (le Monde judiciaire)
، la Médecine et les médecins الأطباء ، les policiers ،
الدين والكهنة في الكوميديا الانسانية la religion et les prêtres
la Musique dans la Comédie humaine الموسيقى والموسيقيون
، et les musiciens الفن والفنانون (Les Arts et les Artistes) ،
المالية وأصحاب المصارف (la Finance et les banquiers) الخ ..
وتقبل استنتاجاتهم بصورة عامة وتقول بدقة وصف الأشخاص والمهن
والرسوم المتعددة. وقد عمد موسى لو ياونك (Moise Le Yaouanc)
إلى تجاوز الدراسات الجزئية التي تتناول بلزك والأطباء والطبابة والعلم

ووصف في أطروحته الواسعة وصف أمراض إنسانية بلزك (١٩٥٩) *Nosographie de l'humanité Balzacienne* ، وصف وصنف الأمراض والأطباء وتشخيص الأمراض والعلاج والنظريات الغريبة في الكوميديا الإنسانية (*la Comédie humaine*) ، ليستنتج أن أوجاع عالم بلزك مطابقة في غالبيتها لأمراض وردت في الجداول الطبية القديمة . ويمكننا الاستدلال ، في هذه الحالات المرضية وإدراجها في الدراما الرومنسية على مدى اطلاع بلزك ، والحكم على طبيعة وأصالة فنه الخلاق . وتخبرنا أطروحة جان هرفيه دونيه *Jean Hervé Donnée* عن الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الإنسانية (١٩٦١) *les réalités économiques et sociales dans la comédie humaine* .

على العناية التي كان بلزك يولها لاقامة لوحة واقعية لطبقات عصره .

اكتفى بلزك باستخدام تجاربه وملاحظاته حين رغب في وصف صحافة عصره وتقييمها ورسم عادات الصحفيين الباريسيين . في حكاية رجل ريفي شهير في باريس . (القسم الثاني من الأوهام الضائعة) (١٨٣٩) . وتصرخ هذه اللوحات وهذه الصور بالحقيقة ، وتضج « بالدقة المفزعة » كما كتب يقول للسيدة هانسكا . « ليست كتاباً بل عملاً كبيراً شجاعاً خصوصاً وأن صياح الصحافة ما زال مسموعاً » . كان بلزك يعرف تماماً الموضوع الذي يتحدث عنه فقد ساهم - كما سبق أن قلنا - في تحرير عدة جرائد ابتداء من عام ١٨٣٠ ، كما حاول تأسيس عدد منها وعانى من تهجم ونقابة

الأدباء، الظالم والخييـث عليه، هذا التهجم الناتج عن الغيرة. وقد انتقم منهم ببقائه أميناً للحقيقة. ونحن نشهد نقداً لازعماً في «الأوهام الضائعة» وفي إحدى وقائع الصحافة الصادرة في المجلة الباريسية في ١٥ آب ١٨٤٠ ثم في دراسة الصحافة الباريسية. وقد وجد المؤرخون في شخصيات وحوادث الرواية السمات الحقيقية للعادات الصحفية في ذلك العصر وتحققوا منها. فالبطل الأساسي لوسيان شاردون دو رومبيره (Lucien Chardon de Rubempré) يقلد وينسخ أسلوب سانت يوف (Sainte Beuve) وجول جانين (Jules Janin) وبعض مغامرات البيري سوكون (Alberie Second). ويؤخذ من اعترافات بلزك نفسه أن لوستو الروائي (Losteau) هو ساندو (Sandeau) كذلك نجد بعضاً من غوزلان (Gozlan) في ناتان (Nathan)، وبعضاً من جيراردين (Girardin) في فينو (Finot) وروكيلان (Roqueplan) في بالفرين (Palférine) (أمير البوهيمية) (Un prince de la bohème). وبدا هذا الشبه على صلابـة القاعدة التاريخية. ونكتشف كذلك في بلونديه (Blondet) وفيـنيون (Vignon) الناقدين في «السجال» (Debats)، بعضاً من فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) المعلق الحقود ومقاوم الاكليروس، وهكتور ميرلين (Hector Merlín) رئيس الصحافة الملكية، والرسام الكاريكاتوري (بكسيو Bixiou). نكتشف من خلاهم جميعاً. الخفايا المخجلة والمناورات القريسة والمساومة والابتزاز والانتقام الشخصي ونفحات الغضب وانعدام الاقتناع الذي

تميزت به صحافة عهد الملكية والملكية البورجوازية ، بعد أن تحولت الى تجارة . فقد كان لمكتب الجريدة وقاعات التحرير ومستودع الناشر والمكتبي كواليسها التي تساوم فيها الصفقات الغير شريفة والمفترزة أحياناً . ويقول لنا بلونديه (Blondet) « لم تعد رسالة الصحافة الاعلام وإيضاح الأمور بل باتت مدح الآراء . انها دكان تباع فيه للجماهير الكلمات التي يرد سماعها . فالفساد سائد ومتشعير بين المديرين وبين الكتاب المغمورين . ومكاتب الجريدة هي « مواخير الفكر حيث تباع كافة الأنواع الأدبية » . ولكن ماذا يمكن القول عن النقد ؟ ان المدح والاستنكار يقيم - بالقسطاس ، والشهرة تصنع فيها وتهدم وفق أوراق البنكنوت والمزادات . « فنحن نبحر الكلمات وننتاش من تجارتنا ... والمقالات المقرؤة اليوم المنسية غداً لا تساوي بنظري الا ما يدفع مقابلها .. » هذا ما يقوله فيليسيان فرنون (Felicien Vernon) أحد مشجعي الفرقة الذي يشكو للجميع من الحياة الكريهة التي يحياها بزواجه من طاهية بدينة . وهذا هو المبدأ الذي يبرر هذا المسلك الشائن : « كل شيء ثنائي في ميدان الفكر . وللآراء وجهان ، جانوس هو اسطورة الوهم ورمز العبقريّة » . هذا هو المبدأ الذي يعمل به بلونديه (Blandet) الى لوسيان رويومبريه (Lucien Rubempré) . بكلمة اخرى يعتبر من دلائل الموهبة قدرة الكاتب على نقض الحكم الذي أدلى به اليوم في الغد ، أو كتابة تقريرين متناقضين الواحد تلو الآخر . أما بلزك فقد كان يغالي في تقدير الصحافة ويريدها أن تصبح كهناً مقدساً ومحترماً .

وهكذا نصب أمام هذه الفرقة من البوهيميين والمتذبذبين الندوة الأدبية التي تضم ميشال كريستيان (Michel Chrestien) وجوزيف بريدو (Joseph Bridau) ودانيال دارتيز (Daniel d'Arthez ،) وأصدقاءه. وهم فاضلون لا يقبلون الرشوة ويعتبرون أن العمل والاستقامة هما الطريقان الوحيدان الى النجاح والشهرة الحقيقية. وتتطلب صلابتهم إرادة قوية والترفع عن المال والابتعاد عن النفاق. ولم يسبق لفن بلزك أن عرف كيف تمكن من اعطاء الشعور بالحقيقة الى هذا الحد. فهو يتهجم العنيف على الكتاب الخقيرين الذي ييعون موهبتهم مثل لوستو (Lousteau) إنما أشار الى الذهن الثاقب ، والأداة اللاذعة التي يديرها المزاج الفرنسي بخفة. وتشكل الأوهام الضائعة هي أيضاً طبخة من تاريخ الأدب تدرس فيها الانواع الأدبية والأفكار السائدة بعد عودة الملكية. ونجد فيها الصيغ المثيرة التي تناول الأحكام المطلقة بصلاية والمصاغة بتهكم. ان هذه الدراسة حول الصحافة تساوي فصلاً من المذكرات (Mémoires) فصلاً مكتوباً بوعي وصراحة وتأثر وحمية - فهذه ميزات بلزك المؤرخ.

لقد تبين بلزك وتنبأ بالدور الكبير الذي ستلعبه الصحافة وتأثيرها في كافة الميادين. « ستكون الصحافة هوس القرن التاسع عشر، وكل فرد حر في التحقق من دقة التعبير باجراء المقارنة بين وضع الصحافة الحالي واحترام الأهواء والأحقاد والتنافس الذي وصفه لنا بلزك، وللجميع الحق في الحكم وابداء رأيهم.

الملاحظة والحدس هما القطبان الذين تتركز فيها فضيلة بلزك وقدرته الخلاقة. فقد خزن في عقله جمعاً كبيراً لا متناهياً من الأفكار والذكريات. وكان الخيال يأخذه حين يغرف من هذه الوفرة من الفنون فتتحقق معجزة الخلق الحقيقي. وقد وصفها بنفسه في مقدمة غشاء الكآبة. «يتعرض الشعراء أو الكتاب الفلاسفة إلى ظاهرة معنوية عجيبة، لا تقبل التفسير يعجز العلم عن تبريرها، أنها نوع من الرؤية الإضافية التي تمكنهم من إستنباط الحقيقة في كافة الأوضاع الممكنة أي أنها توفر لهم فرصة الانتقال إلى حيث يجب وحيث يحبوا أن يكونوا. إنهم يكشفون الحقيقة بالقياس، أو انهم يرون الشيء الذي يودون وصفه سواء لأنه يأتي إليهم أو انهم يذهبون بأنفسهم إليه ...»

هل يملك الناس القدرة على الإتيان بالعالم إليهم، أم أ عقلهم هو تعويذة يبطلون بها قوانين الفضاء والزمن؟ .. وتنبع .
تصريحات أخرى الإعتقاد بأن بلزك يملك القدرات النفسانية الخا التي توفر له رؤية الحدس فقد كان يعتقد نفسه عرافاً مستبصراً .
وصف ديدرو (Diderot) هذه «الميزة الروحية الخاصة السر التي لا تقبل التحديد والتي لا يمكن بدونها تحقيق أي أمر عظيم أو جميل «إنها دليل» العبقري لدى الشعراء والفلاسفة والخطباء .. وهو ليجهل إلى أي حاسة فكرية أو جسدية يمكن إسنادها. فلا بد من إرفاقها وربطها «بالفكر الملاحظ». الذي يمارس دون جهد أو تركيز، فهو لا ينظر أبداً.. ولكنه يرى.. هو غير حاضر لكنه تأثر

بكافة الحواس ، فنحن نملك حساً جديداً لا يملكه الآخرون ، نوعاً من الفكر المتين» .

«أصبحت الملاحظة لدي حدساً ، وهي تتوغل في الروح دون أن تهمل الجسد ، أوانها على الأصح تلتقط التفاصيل الخارجية وتذهب بها فوراً بعيداً : إنها تعطيني القدرة على عيش حياة الشخص الذي تقع وتمارس عليه باتاحتها لي فرصة الحلول مكانه» .

يفرس بلزك المتمرس كعراف في تأويل الظواهر والإشارات ، نظراته في أعماق الاشباح التي تلاحقه . ويسبر قلبها . أفليست كائنات حية بالنسبة إليه ؟ انه يتناول هذا الكائن الذي بات إنسانياً ، ويكشف عن أسراره ، وماضيه ومستقبله وأفكاره المخزية وأهوائه المختبئة . ويستبق ترتيبات القدر البطيء العاجز عن اللحاق به . ويركض أمام الملاحظة بحث من سير خطواته خصبه «المائل» و«الضروري» . لقد حان الوقت وبات حدسه العبقري قادراً وحده على تحريك كافة الوقائع الأرضية والروحية واستغلالها في خدمة فنه . فتراكض الظلال ، رفيقة سهراته المحببة ، وتتوافد وتتسارع أمام عيونه المادية .. فيتطلع وينظر إليها وهي تتحرك وتراقص وتختلط فيما بينها وتعيش وتتزوج ، إنه محفل السبت الليلي . فلا يقدم لنا نسخة عما يجري أو يصور لنا أمد الناس الذين يمكن التعرف الى صورتهم في المرأة السحرية . إنه يعرض لنا أبطال وشخصيات الكوميديا الانسانية ، إنه الأب غوريو (Goriot) ، انه الأب غرانديه (Grandet) انه السيد التازار كلايس (Balthasar Claës) ، إنها الأم سيبو (Cibot) ،

إنها فيرونيك غرسلان (Veronique Graslin) إنها ديسان
 دو موفربتيزوز (Diane de Maufrigneuse) وآل مارساي
 (Marsay) وتيليه (Tillet) وتراي (Trailles) ، وأنها
 الفتاة ذات العيون الذهبية ، إنها الإنسانية التي تتساءل عن الأرض
 التي شهدت مولدها .. ونحن نتأمل عينات من نوع غريب ونردّد عبارته
 هو بلزك نصف الإله « هل يطلب من الفن أن يكون أقوى من
 الطبيعة » ؟ إنها معجزة بلزك .

وتلمس الإنسان الشامل عبر شفافية الفردية . فبلزك يتابع
 سلالة كبار الكلاسيكيين . إلا أن السحر ينقطع فجأة بسبب ضحكة
 ساخرة : « حاجتي ، إنها الأم سيبو (Cibot) » أو - « حين
 حضرت بالأمس بكل أناقتها إلى سهرة فلان .. شعرت أنني أرى ديان
 دو موفربتيزوز (Diane de Maufrigneuse) . يا لها من مغوية
 رجال » . لهذا السبب يسيء الناس ببعض رواياتهم إلى هذا المثل « أنه
 مطابق لبلزك تماماً » .

من العبث ومن الخطأ أن نواجه لدى بلزك بين الروائي
 والمؤرخ ، وبين المثالي والواقعي ، فهي متداخلان متكاملان ولا يمكن
 أن يقوم أحدهما دون الآخر . وإذا كانت أبطاله الشهيرة نماذج متطرفة
 إلى أبعد حدود التطرف ، بفضائلها ووراثاتها مثل غوبسك
 (Gobseck) ، غراندييه (Grandet) ، فوترين
 (Vautrin) ، هولو (Hulot) مارساي (Marsay) وهي
 نماذج استثنائية لحسن حفظ الإنسانية - أقصد الأذال فقط - فإنها

صحيحة في كل تفاصيلها. ولم يعد اليوم أحد يعترض على كون بلزاك مؤرخ العادات. فقد وهبنا عن فرنسا القرن التاسع عشر وهذا الكتاب الذي نتحسر عليه جميعاً. هذا الكتاب الذي لم تخلفه عن حضاراتها لا روما ولا أثينا ولا صيدا ولا ممفيس ولا فارس ولا الهند المقدسة».

وتقول جورج ساند انه «كتب لأرشيف تاريخ العادات مذكرات تصف القرن الماضي». وكان يذكر في رواياته الأولى بعناية. أشكال الملابس البالية ومكملات الزينة والعادات والأشياء وبقايا القرن الماضي التي تظهر غرباء أو مضحكين هؤلاء العجزة الذين حافظوا على عاداتهم القديمة في هذا العالم المتطور.

لقد بقي فضولياً يجب معرفة هذه المخلفات التاريخية الحية ، متنبهاً لخصائصها كالموثق وعالم الأثریات والمحلل . أليس هذا موقف المؤرخ والمحلل : وهكذا يبقى رأي فلوبر (Flaubert) غير قابل للنقاش ولا يمكن لأحد أن يكتب تاريخ حكم لويس فيليب (Louis Philippe) دون العودة إلى بلزاك . ويمكننا أن نقول نفس الشيء فيما مضى حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر . والوثائق التي تفيض بها الكوميديا الانسانية تعطينا «قيمة كتاب جدليات» . ويؤكد برونتيير (Brunetiere) في كتابه بلزاك أن الكوميديا الانسانية تساوي مذكرات نخدم تاريخ المجتمع في عصرنا . وأننى قائلاً بانني من هؤلاء الذين لا يعتبرون مغالياً تقييم أناطول

فرانس (Anatole France) بلزك. إني اعتبره أكبر مؤرخي فرنسا الحديثة ، التي تعيش كاملة في مؤلفاته الضخمة..

بلزك مؤرخ ولكنه يفعل مع الأحداث ويتأثر بها ، لذا أيقن مصير الطبقات الاجتماعية وعلاقاتها «مرتبط بوضعها الاقتصادي» . وقد اتخذ السيد جان هرفيه دونار (Jean Hervé Donnard) من هذه الحقيقة بعد أن تأكد منها ، دليلاً لتحقيقاته حول الوقائع الاقتصادية والاجتماعية في الكوميديا الإنسانية. فقد دلت كل من طبقة النبلاء والبورجوازية والعامية في فترة الخلق البلزاسي الممتدة بين عام ١٨١٩ و ١٨٤٨ على تنافرها الشديد عبر عدة ثورات. انتصرت فيها البورجوازية وأصبحت الطبقة المسيطرة لأنها تملك النفوذ والمال. ومن الرائع متابعة تطور الفكر لدى بلزك ودراسة ردة فعله لدى اصطدامه بالأحداث السياسية والاجتماعية والتجارية والمالية والصناعية والأدبية والفلسفية ورؤية التنافس الذي تثيره. ويدعم عدد من الشواهد التي اختارها الناقد العلاقات بينها وبين الآراء التي ساقها بلزك لتأييدها أو الاعتراض عليها مما يسمح لدونارد بالاستنتاج أن بلزك كان كاتباً ملتزماً وفق المعنى الواسع لهذه الكلمة... فقد تميز دائماً بصلاية ، فيما عدا آخر أيامه . وعرف كيف يحافظ على استقلالية فكره وعمله. لقد رأى بلزك كل شيء وتوقع كل شيء. كان نبي العصر الحديث لأنه راقب وتفهم عصره بصورة رائعة.

— ٤ —

دور الوصف الفعال

لن نفاجأ بعد أن عرفنا ذهنية بلزاك ، ونحن نراه يفرد مكاناً واسعاً للوصف ويعطيه دوراً أساسياً في الروايات . فهذه وسيلة بليغة في النهج المركب : رسوم محددة ، مرسوم غني بالألوان ، تفاصيل دقيقة كذلك تلقى الخطوط والألوان الضوء على بعض الأشياء وبعض الخصوصيات ، التي يرى فيها المراقب محقاً أن « أكثر من قضية تستدعي وتتطلب حلاً » . وتبدو « مشاهد من الحياة الخاصة » وكأنها قاعة عرض يفضح فيها الأسلوب النوايا : فهو لا يكتفي ولا يشبع نهمه بالسيطرة على الطبيعة والتقاطها في لوحته ، بل يدخلها وكأنها ممثلة تقوم بدورها المستقل ويدمجها في لعبة الانقلاب (تغير مفاجئ في وضع بطل مسرحي أو روائي) وتطورات العقدة . وحين نفهم هذه المزية نجد أنها تندد بالمستوى المتدني الذي يحاول البعض وضع هذا الوصف فيه بسبب وفرة وطوله المتماذي ونود تحديده من خلال بعض الأمثلة المأخوذة من مشاهد من الحياة الخاصة : (١٨٣٠ - ١٨٣٢) والروايات المؤلفة في النهاية (١٨٤٦)

لنتوقف ونتأمل في شارع سان دينيس منزل السيد غيوم (Guillaume) تاجر الأجواخ العتيق بواجهته الغريبة التي تنصب

لافتة لها قطة تكب (la maison du chat qui pelote) : وفي
 الفوبر سان جيرمين (Faubourg Saint Germain) قصر دوقه
 لانجيه والقديم والفخم، وفي شارع تورنيكه سان جان
 (Tourniquet St. Jean) البيت المعتم الذي تقيم فيه كارولين
 كروشار (Caroline Crochard) مع والدتها : وعلى ملتقى شارع
 تمبل (Temple) العتيق وشارع فرانسوا الجديد القصر الذي تعيش
 فيه السيدة غرانفيل (Granville) وفي شارع تيبو (Taitbout)
 الذي يخفي فيه السيد غرانفيل الزوج هيامه بكارولين (العائلة
 المزدوجة). ثم نصعد السلام وتوغل إلى داخل المخزن والصالة
 وغرف النوم.

لقد عرفنا قبل ان نرى سكان هذه المنازل أهواءهم واسرارهم
 من خلال زينة البيت الخارجية والداخلية التي اجبرهم سوء مصيرهم
 على الايواء فيه ان لم تدفعهم إلى إختياره اذواقهم ونزواتهم. وحين
 يتصور بلزك الإخراج تتكرر تحت ريشته ثلاث كلمات فهو يفترض
 دائماً، أن مراقباً... يفسر خصوصيات الأمور والأشخاص ليصل إلى
 التناسق الذي أعده بلزك مسبقاً بين هذه التفاصيل وارواح هؤلاء
 الناس الذين يدفعهم على المسرح نحو المأساة وهو لا يجد أية
 صعوبة في رؤية هذه العلاقات. أليس هو واضعها ومراقبها «كل
 شيء متناسق» لأنه هكذا اراده ولأنه يرغب في برهنة هذا المبدأ «علم
 الزينة» الذي تتداخل فيه معلومات عالم الأثريات وتاجرها. فهو قادر
 على الدلالة على عقد صاحبها النفسية والذهنية. هذا العلم هو المنظم

الذي ينم عن تناغم الفرقاء ووحدة الإلتباه وهو في نفس الوقت « أحد هؤلاء الفراشين الذين يرشدون الفنانين : ويقولون اليوم أحد المزهرفين الحلقين الذين يعتمدون على علم النفس الفيزيائي المطبق لتأويل أو استباق اذواق زبائنهم . ويمكن هؤلاء المزهرفين اعتبار بلزك سلفهم الشهير . ذلك أنه يمكن رسم صالة الدوقة كاريفيليانو (Carigliano) وغرفة استقبال السيدة غرانفيل وغرفة نوم كارولين كروشار (الشهيرة باسم كارولين دو بيل فوي Caroline de Belle feuille) ووضع وصفها في إحدى المجلات لتشكيل دعاية جذابة لبعض صانعي الأثاث : فكل قطعة : سرير أو مكتب أو صوان أو بساط أو امرأة أو ستار ، تدل على افكار من تحيط بهم ، يزدون بجملها ويزرون سحرها . اما السيدة غرانفيل فانها على العكس من ذلك «تسم عالمها من الأشياء بطابعها وصفاتها» . وهكذا تبرز حقارة وضيق وجفاف وتصلب إخلاصها السوري في هذه التزيينات . لقد باشر بلزك مهمة سيقمها برضى بعد مرور اثني عشر عاماً بتسمية «راوي مآسي الحياة الخاصة ، وعالم أثريات المنقولات الاجتماعية» لقد ألقى الضوء فجأة على مبدأ حاسم ليستعمل منه كافة استنتاجاته والافراد الذين يتحررون منه يسرون عادة نحو نهايتهم ، عادة وليس حتماً . «فللوضع الإجتماعي صدفه التي لا توفرها الطبيعة» . فالبنى تقولب الارواح والنفوس وتفرض التقيد بالقوانين الموافقة لتطور النوع . والسؤال الآن هل تغير النفوس شروط السكن ؟ إنها تنهار . فالأوضاع المعنوية تتبع التعديلات المادية وقد يمكننا القول أنها تتأثر بالتغيرات المحلية .

(لنستخدِم منزل القطبسة التي تكب
 la Maison du chat qui pelote لبنين صحة وصوابة هذه
 الحقائق البلاكية. إنها الرواية الأولى التي افتتح فيها بلزك مجموعة من
 الوسائل التي سيجعلها نظاماً: إننا نجد ثلاثة أوصاف تتبعها ثلاثة
 أوضاع حاسمة. وهي تعلن بالتباين عن بقية الطوارئ والانقلابات التي
 ستحدد مصير البطلة وتؤثر إلى المنعطفات. فهناك أولاً المنزل التجاري
 المتعصب الذي يخلد منظره المهتم هذا المعجزة في عالم الاثريات نوعاً
 من الحياة الذي يتوجب التناسب مع كائنات مبنى قديم. سور هذا
 المبنى درب أوغستين غليوم (Augustine Guillaume) ذات
 الفضائل المعتدلة، نموذج ربة المنزل صاحبة العقل التجاري، المبتدل
 وإن كان متدفقاً في استقامته. كانت توفر السعادة العائلية البسيطة
 والافراح التي تعوض عن الحياة الكادحة وفي مقدمتها لذة إيدار المال
 الذي ربحته بعملها الشاق. وكانت «الشابة تترعرع في صمت المتجر
 المظلم كما تترعرع البنفسجة في أعماق الغابة»، بعيداً عن عواصف
 الأهواء وفي مأمن منها. كيف يمكن للتزوات وللمزاج الحر المنطلق،
 للفرح الشاعري واوهام الخيال والأهواء وأحياناً لهذيان الإلهام الوثاب
 أن يقترن بالتنظيم الدقيق، والتوقيت المنظم والأعمال الرتيبة التي تسجل
 نتائجها الإيجابية فوق دفتر الحسابات الكبير الذي امسكه أوغستين
 بعد والدتها واثري زواجها من الكاتب الذي خلف والدها؟ يظهر هذا
 التناظر على صورة فنان رسام نبيل باصوله تيودور دو سومير فيو
 Théodore de Sommervieux الذي سحره جمال الحسنة الشابة

وتذكر المأساة في الخروج عن هذه التقاليد السحيقة ، العريقة في قدمها ، التي مثلها وحاجا حتى اليوم هذا المنزل الوقور . وتنقاد أوغستين وراء سحر الحب وترفض بسبب نزعتها الفردية الاستماع إلى نصائح أهلها وتزوج من الرسام .

وفيما يلي الوصف الثاني والتناقض الثاني . بعد ان يتذوق الزوجان رحيق شهر العسل لمدة عام يبدأ سوء التفاهم بالتفريق بينهما فالتربة التي تلقىها اوغستين لم تعد لها قط للعيش في أوساط الفنانين ، وهكذا تعجز عن التأقلم وتفهم نزوات تيودور الناتجة عن اندفاعه لفنه . وتدفع حشمتها وتصلبها في تطبيق المبادئ التي اخذتها عن والدتها زوجها إلى اللامبالاة بها . ويتزايد فتوره يوماً بعد يوم . وينصرف عنها . خصوصاً وان تفاهة افكارها تمنعها من التخلص من تعصبها وتذهب كافة جهودها ومحاولاتها لاسترجاع زوجها أدرج الرياح وتكتسب سعادتها ويعتاد تيودور دو سوميرفيو Théodore de Sommervieux على هجرة المنزل الزوجي ويتكرر غيابه عنه رغم ولادة طفل لها . ويتعلق بالدوقة ووكاريفليانو (Carigliano) وهي مغناج شهيرة في البلاط الامبراطوري . مما يدفع اوغستين بعد ان تسكب الدمع دماء إلى تقرير اللجوء إلى نصائح ومواساة عائلتها .

وينفتح امامنا قصر بورجوازي صغير في شارع فيو كولومبيه (Vieux colombier) حيث يعيش الزوجان غليوم على الضجر يقتاتون الملل بعد ان تخلوا عن المحل التجاري للإبنة البكر فيرجينيا

(Virginie) العاقلة والحذرة والرشيدة التي تزوجت من مساعد والدها ويده اليمنى جوزيف لوبا (Joseph Lebas) لقدحول الترف البارد الذهبي والفضي الذي لا ذوق فيه هذا المنزل إلى «سوق» وجعل من كل غرفة فيه «مصلى» ويتراءى كل هذا لأوغستين المتطورة اليوم وكأنه صورة لعالم اصطناعي ، متخلف فارغ من المشاعر ومن «الافكار التي تبث الحياة في العروق». وتتعدد الازمة فكيف يمكن أن يحى النصح والارشاد والعون في محنتها من قبل اناس بمثل هذه الخسة يعتبرون الحب غباوة وقصصاً مملة. فكان لا بد من البحث عن ملجأ آخر بعيد عنهم. وكان الانطباع مشابها حين لجأت أوغستين بقلبها المثقل إلى جوزيف وفيرجينيا لوبا (Joseph et Virginie Lebas) اللذين يتابعان في المخزن العتيق الحياة الرزينة الرتيبة التي تحافظ على سمعة - القطة - التي تكب . (chat-qui-pelote) ولا نجد روح الاخت الحيرة أي صدى لديها. فهما يقابلانها بالحديث عن أخلاقية شارع سان دينيس (rue Saint-Denis) : فهذه تكفيهما لتحديد مسلكهما لكن أوغستين قد رفضت هذه المفاهيم بهربها منذ زمن بعيد. وتكون القطيعة شاملة هذه المرة وتبتعد البائسة بارتياح عن أصحاب العقول البليدة وعن منزلهم الفظيع. وتشكل هاتان الزيارتان زيارة واحدة ، كما يشكل هذان المحلان المختلفان بمظهرهما بيتاً واحداً. فترل الأهل الكتيب ليس الا مؤخرة المخزن المعد لاستراحة «المعلم». وتخرج من هنا مشمثة وقد اعتبرت حياتها فاشلة متهمة هؤلاء الناس المختبئين

وراء الجدران المغلقة على الخارج بصنع تعاسها . فقد اوصدت هذه الجدران على قلبها ومنعته من السمو في علياء العاطفة بعد ان أغرقتة بالإرشادات . ونزلت به إلى المتطلبات الصغيرة الخسيسة . فمن كان ليدر بها على اسرار الحب المثيرة ، أسرار الحب الذي يروض الرجال ويسيطر عليهم ؟ لقد فات الأوان الآن .

كشف الوصف الثالث للمرأة الشابة بتناقضه العنيف ، الهوة السحيقة التي تفصلها عن زوجها وتقضي على سعادتها . استجمعت اوغستين الخجول شجاعتها ، شجاعة «خارقة» وقررت مواجهة دوقه كاريفليانو (Carigliano) السيدة الشاعنة التي عرفت فيها غريمها ومنافستها المنتصرة . كيف ستحمل البنفسجة المتواضعة الاجواء الخائقة في قصور فوبور سانت جيرمين الفخمة والقديمة ؟ وهي لم تدخلها من قبل «و حين عبرت اوغستين هذه الاروقة الفخمة وصعدت هذه السلام الفخمة وجازت هذه الصالات الواسعة المزينة بالازهار رغم قساوة الشتاء والمنسقة وفق ذوق هؤلاء النسوة اللواتي ولدن وسط الرخاء أو اخذن عادات الارستقراطية المميزة . شعرت بانقباض في صدرها . واشتت اسرار هذه الأناقة التي لم تخطر على بالها قط في السابق . وتنشقت سمات العظمة وفهمت جاذبية هذا المنزل على زوجها .» جاءت تنوي الاستفسار من الدوقة عن الحيل التي سلبتها حب زوجها سومرفي Sommervieux وهنا بدأت تفهم وهنا أيضاً يرد تناقض جديد ، فكان واجواء هذا القصر المفرط في الترف والأبهة . ترمز إلى الفتنة الساحرة . وتثور أوغستين مرة ثانية على

ماضيها حين يسمح لها بالدخول إلى الصالون الصغير حيث تتلقى المعبودة المستقلية بشكل مثير «كتمثال قديم» تعبير معجب عن هيامه يحمالها وهو ضابط في فرقة سلاح الفرسان «آه لو انني ربيت مثل هذه الحورية!» نعم فالاشياء تسيطر على الكائنات تنسى الدوقة عجزها وتتخلى عن انانيتها القاسية وتطلع الزوجة الحزينة على تجربتها وقد احتدم خيلاؤها، فتكشف عن الاسرار التي تضمن تفوق المرأة على زوجها «ان الاغبياء يعتبرون المظاهر الخارجية نصف الحياة» وهكذا يتحول أكثر من موهوب إلى احمق رغم كل عبقريته. انها ترهات ولكنها مجهولة تماماً في منزل تاجر الاجواخ السابق. يا للسخرية الدوقة «أمرأة قوية» وابنة تاجر الجوخ امرأة ضعيفة انها ثمرتا أوساط مختلفة فاوغستين ليست مهياة قط «للتفاعل العنيف مع العبقرية» ويعيدنا التشبيه النهائي إلى مبدأ السكن. فالزهرة البسيطة المتواضعة المفتحة في الوادي تموت عندما تنقل إلى المناطق المرتفعة حيث تتشكل العواصف وتحرق الشمس.

ويمكننا إعادة تقديم هذا البرهان فيما يخص رواياته العشرين مع اوجنيه غرانديه Eugénie Grandet (١٨٣٣) وكاهن القرية (١٨٣٧) حيث يتمثل منزلان وصفين نفسيين فيزيولوجيين لفتاتين ولدتا في أوجنيه غرانديه وفروننيك سوفيا (Véronique Sauviat). كذلك في الأوهام الضائعة تدل مطبعة سيشار الاب (Sécharde) بمظهرها المتهدم الوسخ وأثاثها المسوس المنخور على هيئة العجوز البخيل الذي يكره ابنه. ونجد

وضع أوغستين غيلوم امام دوقه كاريفليانو متمثلاً في ابنة العم بيت (la Cousine Bette). فالبارونة الفاضلة هولو (Hulot) تذهب إلى مغنية الاوبرا جوزيفا ميرا (Josépha Mirah) تطلب منها اعادة زوجها الذي تظنه أسير حبك الفنانة الشهيرة لكنها تجد عاشقاً جديداً قد حل مكانه. وهنا أيضاً يدل التناقض في المكان على التناقض القائم بين النفوس. وهنا أيضاً تدهش عظمة الإطار الشبيه بالفخ عيون البارونة المسحورة ببذخ الأثاث. وهنا أيضاً تتأثر المغنية السئمة تماماً كالدوقه كاريفليانو أمام العظمة الساذجة والمهية للزوجة الكثيبة. وتخضع للمرة الثانية الانانية أمام البراءة والفضيلة وتحول الغانية إلى خادمة للمرأة ذات القلب الصافي.

تدل رمزية الاشياء وآثارها في الارواح على مفاهيم الروائي بصورة عميقة. فالدوافع اللامرئية تحرك المآسي الكبيرة إلى درجة تؤثر معها الاشياء الحامدة بتيارها المغناطيسي على المصائر كالأحياء تماماً. ونستشف نظام التوافق الذي سيشغل إلى أبعد الحدود. فلحصة فغورد (Fgord) افكارها ولغتها اللطيفة. وبوسع بلزاك استعمال هذه الوسيلة لتشمل الصور، فاي اشارة أوخاصية في الملبس أو مكسر في الثوب أو سمة في المظهر أو التسمية أو الشعر المسطح وتموجاته ولون الجلد هي دلائل تدل على اخلاقية الناس وظروف حياتهم ووسطهم الاجتماعي فهي تدل عليها بنفس دقة الكلمات والتحقيقات وتعبّر عن ميولها. من لم يشعر بنفاذ الصبر والقلق وهو يحاول فهم أرغة المعرفي اليهودية الالمانية البارون نوسينجين (Nucingen) في عدة روايات من

«مشاهد من الحياة الباريسية Scènes de la vie parisienne التي جمعت تحت عنوان عظمة وبنوس العاهرات ؟ وأي بذاءة وأي صور خاصة في زعيق وكلمات المحكومين بالاعدام !

ونسحر دائماً بالكوميديا الانسانية حين نكثر من ارتيادها. فاختيار التفاصيل يستدعي فوراً معناها الاخلاقي في فكر القارئ. فيتشى بمسكر غريب وهو يفسر تصرفات أقرانه لاحسب تقويمه الخاص بل وفق اصطلاح بلزاسي حل مكان ممارسته الطبيعية ممارسة المنطق والتجربة. وسواء دخل إلى غرفة استقبال أو لدى بائع أثاث قديم (غشاء الكآبة) فهو يذكر بسرعة ما يمكن تسميته باسس بلاغة بلزك. وكذلك هو الأمر بالنسبة للاشخاص الذي يكتشف نماذجها الأصلية لدى مؤلفة المفضل : وينبجس الاسم على شفتيه. ويصبح عاشق بلزك الفعلي ملاحظاً دقيقاً وكأنه أثر الصدمة الارتدادى وهو يدرس بدقة داخل المتزل ليستتج منه الوضع المعنوي لقاطنه. ويلجأ إلى قاعدته المفضلة المقارنة أي جمع النماذج التي خلقها ربه. هل يشكل هذا الفن الساحر سراباً خطيراً لمن يعاني منه ؟ الكل يجيبون أنه يزودهم بثقوب الفكر والتجربة والحذر. ولم يعد لنظرية الاوساط إلاقيمة نسبية وإن لم تفلس تماماً. فما زال الروائيون يتابعون استخدامها، ولكن هناك بعض التفسيرات النفسية الفسيولوجية الاخرى المتميزة بعمقها وعلميتها وتأقلمها مع ليونة الديناميكية الانسانية :

الجزء الثاني تيار الأفكار

- ١ -

المعنى الفلسفي للبحث الخيالي الخارق

بدا انتاج بلزك خلال الستين (١٨٣٠-١٨٣١) غزيراً وفوضوياً. ويمكن لوردة الرياح أن تكون رمزاً له. فقد انطلق نشاطه نحو الجهات الاربع وتوجه نحو النقاط الجانبية. وإذا غيرنا التوجه وعدلناه بعدة درجات سواء يسرة أو يمنة فإن هذه الأنواع الأدبية المختلفة يمكن أن تدفع نحو هذا الخط أو ذاك بسبب عواملها المتعددة، فتتقل بتطابقها مع احدى الأعمال السابقة من مشاهد من الحياة الخاصة الى مشاهد من الحياة العسكرية الخ.. الموضع موضعها يتعلق بالانطباع السائد في فكر القارئ.

لقد استوحيت هذه الصورة من تعبير «الأجولية الأدبية» التي يستعملها القصصي في مقال له بتاريخ ٢٩ أيار ١٨٣٠ «الدُّرْجَة في الأدب». ليعلن دُرْجَة العام المقبل وتوجهه «بوسعكم الاختيار بين اللون والمأساة بين الخيال والواقع»، وقد نشر «غشاء الكتابة» في آب ١٨٣١ ثم طبعها للمرة الثانية وأرقفها باثني عشرة رواية وأعطاه عنواناً واحداً عاماً «روايات وحكايا فلسفية». وعام ١٨٣٢ أثرت السلسلة بـ«حكايات فلسفية جديدة».

تبدو الصفة للوهلة الأولى مدعية متباهية. فالرجل المفكر

يستشف الفلسفة في كل الأمور حتى في القصص الغربية والمهزلية والمهزنة. وكانت كلمة خيالية أنسب إلا أن بلزاك رفضها: حين ظهرت في شباط ١٨٣٢ «الحكايات الداكنة» التي ساهم فيها بلزاك مع فيلاريت شال (Philarète Chasles) ورابو (Rabou) أعلن في مقال نشره في «الكاريكاتور» (Caricature) «لنبداً بتهنئة واصفي الحكايات الداكنة لعدم استعمالهم كلمة خيالي في العنوان، فهذا بيان متداول لنوع ما زال مستجداً، لكننا استهلكناه لكثرة ما أسأنا استعمال اسمه فقط. وإذا ما توفرت مرة شروط مثل هذا العنوان فقد تحققت في المؤلف الذي نعني به: عين بلا جفون، جسد بلا أذرع رأس بلا صاحب، تفاصيل عن حياة في عالم مختلف. تلك هي أنواع الخيال والاغاني جاهل لا أعرف شيئاً... وينطبق هذا الحكم على المؤلفات السابقة والكسير الحياة الطويلة (l'Elixir de longue vie) الصفر (Zéro)، رقصة الحجارة (la danse des Pierres)، كوميديا الشيطان (La comédie du diable) الفنـــــــــــــــــدق الأحمر (l'auberge rouge)، يسوع المسيح في الفلانــــــــــــــــدر (Jésus Christ en Flandre)، غشاء الكــــــــــــــــآبــــــــــــــــة (la peau du chagrin). لقد أخصبت الحكايات الخيالية التي وضعها هوفمن (Hoffmann) وترجمها لويث فيمار (Loève Veimar) (١٨٢٩) وزادت حب الجمهور لتذوق هذه الدرّجة. وقد اتبع جول جانين (Jules Janin) الخط السائد في

كتابه «الحمار الميت والامراة المعدمة بالمقصلة» (١٨٢٩)
 (l'Ane mort et la femme Guillotinée)
 والاعتراف (١٨٣٠) (la Confession). فأيقظت هذه الموجة لدى
 بلزاك ميلاً بدا لديه في مؤلفاته الأولى التي وضعها قبل عشر سنوات
 فـالتورن (Falthurne) ستيني (Stenie) ، المنوي
 (le lentenaire) ، الجنية الأخيرة (la dernière fée) ،
 ارغو القرصان (Argow le pirate) . لقد صاغ حبكة بمظاهر غير
 طبيعية تعود الى القوى المجهولة في الجسم الانساني والمشبعة بالحو
 الحيوي والتيار المغنطيسي الذي يقذف بطاقاته عن بعد ليحقق ارادته .
 ثم بدل الروائي الشاب سحر آن رادكليف (Anne Radcliffe)
 وماتورين (Maturin) بعالم بملكون قوة كبيرة يعتمد الى تعليلها
 علمياً . وكذلك استخدم في مؤلفاته المسماة فلسفية غشاء الكتابة . هذه
 التعويذة السحرية التي تمكن مالکها من اشباع كافة رغباته وهي
 تناقص بتوفر كل لذة جديدة ويؤدي تلاشيا الى موت مالکها .
 كذلك هناك الألكسير الذي يحيي المحتضرين ويحفظ لهم حياتهم ،
 وهناك احتفال يوم السبت الليلي في الكاتندرائية حيث
 تترافق الأقبية والركائر والمقراء وتعزف الأرغن وحدها . وهناك الوثيقة
 الشيطانية التي تضفي الشباب على جسد ملموت (Melmoth) بعد
 أن يدفع روحه ثمناً . فلا بد من تقديم تنازلات للتوافق مع ذوق
 العصر . ولكننا سرعان ما ننسى هذا الغشاء الشرس ، ونهزأ من سخف
 الميثاق الشيطاني الذي يقيم في البورصة كأني سهم عادي .

فنحن نعرف حقيقة هذه الأحداث الغريبة ونعي أنها رموز باردة. ألا يبدو الفنان ماهراً باستبدالها ببواعث وعلل طبيعية؟ غشاء الكتابة هو رمز السل الرثوي الذي ينهش رفائيل. إنه العربة السحرية التي تنقلنا بين كافة الطبقات الاجتماعية لنشهد كيفية تطبيق المبادئ الفلسفية فيها وقال فيلاريت شال (Philarète chasles) ان غشاء الكتابة والحكايات هي مؤلفات «تنحصر فيها الملاحظات الحقيقية والذكية ضمن اطار السحر». لقد هدف الكاتب الى رسم «خيال عصره» في لوحات صادقة بصحتها. ورمى المفكر الى نقل الحكمة المنقوشة على التعميدة بلغة واضحة. كمننت روعتها الحقيقية رغم أنها عجيبة ، في ذكر وتعداد ألوان الحضارة الهائلة المتطلعة الى الملذات الجاحمة في بحون الأهواء عبر الترف المنتشر بوقاحة الى جانب البؤس الاجتماعي. وتتوخد العبرة الفلسفية بالدلالة على آثار هذه التطرفات خصوصاً وان بلزك قد اعتبر هذه الحكايات تقلبات لفكرة غشاء الكتابة التي عاجلها في السحفونية. فهي في عمقها تشكل دراسة للعادات، وتعتبر نافذة بأهدافها، وخيالية بشكلها، وفلسفية بهدفها الفوري لأنها تقتضي البحث عن أسباب الفوضى الاجتماعية.

لنعد تشكيل النظام الفلسفي لدى بلزك. من أين يأتي مرض العصر وهذا اليأس الذي يلاحظه المراقبون والأطباء في صفوف شباب عام ١٨٣٠؟ خصوصاً وأنه لم يسبق لحمى الملذات أن ملكت مثل هذه المجموعة من المتع ومشاعر أكثر رهاقة وأكثر عنفاً. حيث وحدت الروح والجسد ثرواتها، فكانت كلها اشتدت هذه المشاعر كلها

يشس هؤلاء الشباب فلِكُلِّ تجاوز ثمنه . ذلك ان الحواس تضعف من ممارسة هذه اللعبة الرهيبة وتستهلك القوى العصبية وتمتلئ الروح بالفراغ كلما ازدادت وارتفعت الدعوة إلى النهاية فينتزز المرء ويشمتر ولا يعود الجسد يستيقظ إلاّ بواسطة إثارة متزايدة وغير منتظمة لحاجته إلى شهوانية جهنمية مما يدفع العقل إلى ابتكار واختراع ملذات مفتعلة وتحسين وسائل المتعة . أليس هذا هو الهدف الذي يتوق اليه تقدم الحضارة الحديثة؟.

« يتحول الفجور والفسق إلى فن عظيم كالشعر . وترتكز قاعدة هذه الأنانية على السلطة والإرادة مجتمعتين . وهي تؤكد ما قاله جان جاك بأن «الانسان الذي يفكر هو حيوان فاسد» ويردّد بلزك «لا بد من اعتبار الفكر الواقع الأساسي في اضطراب الانسان» . فكلما تخضر الانسان كلما نحر نفسه لأن «الحياة تتناقص وتنخفض كلما تزايدت رغبات الانسان» . ويمكن لحكمة أبيقور أن توفر لنا الوقاية الفعالة من هذه القاعدة الثانية : الرؤية والمعرفة ، فاكشاف فحوى الحدث بواسطة الذكاء ، والتمتع به بواسطة الحدس بعيداً عن القذارة الناتجة عن التملك الجسدي الذي يتحول الى أفكار بعد إشباعه . فحققوه دون إرهاق أعضائكم . فهذه «الشهوانية المثالية ستوفر لكم أفكاراً تنفيذية إذا كنتم من الفنانين» . هذا هو الاجتهاد الجميل الذي تعلمه العجائز البلهاء السبعينيات للشباب دون جدوى . وتكذب إحداهن بصورة مضحكة نظرياتها بعد أن عرضتها على رافائيل (Raphael) بطل الرواية فهي تعتبر أن «ساعة من الحب» تتقاسمها مع «شاب

غول» أكثر ضرورة من «هذه الأفكار الأشباح» وهذه الأوهام الفارغة. فقد قتلت الفكرة المفكر. وتبين أن الجحود في الحياة والاعتدال والتنكر للملذات التي علمها والد بلزك لابنه لا تعني شيئاً للولد. وكل ابطال غشاء الكآبة، رفايل وفيودورا وتاجر الأثريات العجوز والعاهرة أكيлина (Aquilina) (المعرضة للموت في المستشفى) يفضلون عدم فقدان أي شيء إنطلاقاً من الغبطة المسبقة حتى آلام الأهواء المبرحة. فالموت هو مقايضة.

سندرس القيمة العلمية لهذه المبادئ الفلسفية، لكننا لن نناقش بعدها الاخلاقي الذي ادعى به المؤلف والذي ندد به دولاتوش (M. de Latouche) وسانت بوف (Sainte Beuve) ومونتالمبير (Montalembert). تكمن جذارة هذا الشعر - فقد كان بلزك يكره تسميته رواية - في رسم أكثر الأوساط تبايناً التي تنقلنا فيها « هذه الفتنة الشرقية ».

منح وأعطى هذا « السحر في الخلق » وهذا النقد اللاذع وهذه الشعرية الملونة الحواس بتوهجاتها، تحسناً بأكثر الوقائع مأساوية. وإشعاعاً مضيئاً ونعومة الغزل البريء الغض. إنها دوامة تتسارع حركتها في لمعان وفرقة السوط، ويرهق المروض مخلوقاته هذه الوحوش الحقيقية المزججة لذة، التي لا تشبع والتي لا تتعب في ثملها. ويضغط الحبور على الفنان ويدفعه في رقصة الألوان والايقاع والصور والأصوات. ويتلوى اسلوبه ويتموج نثره ويخضع لتغيرات المشاهد

مهاراة لا مثيل لها. ويبقى رغم كل شيء مؤرخ القرن التاسع عشر الذي قتله سم التطرف في الحضارة.

نجمت الحكايات الفلسفية وفق مؤلفها عن القاعدة الواردة في غشاء الكتابة. فحدة الفكرة أو كثافة المشاعر سواء كانت مشاعر فرح وحبور أو أحاسيس ألم روحي، تخل بنظام القوى الحيوية وتدمر الجسد. وقد أتى الدليل على ذلك في الوداع (Adieu). ففي ممر بريزينا (Bérésina) تفترق الكونتيسة دوفاندير (de Vandières) بعنف عن صديقها. الأمر الذي يدفعها إلى الجنون وترديد كلمة واحدة فقط الوداع وهي الكلمة الأخيرة التي قالتها لفيليب دوسوسي (Philippe de Sacy) الضابط الذي تحبه. وحين يعود هذا الأخير لا تتوصل المعتوهة الناعمة إلى التعرف على الكائن الذي لم يتوقف عن اعزازها. فيحاول يائساً أن يرد إليها عقلها ويعيد تشكيل الاجواء الفظيعة التي شهدت فراقها. الأمر الذي يسبب صدمة نفسية للنعيسة فتولد الفكرة فوراً. وتتوصل «الارادة الانسانية بسيوها الكهربائية» إلى إحياء هذا الجسد البله وتغرق المرأة في دموعها حين تتعرف إلى صديقها فتعانقه وتضمه وفجأة «تجف دموعها ويشحب لونها كما لو ان التيار قد صعقها». ونجد وصفاً لنفس الآثار في المصادر (réquisitionnaire) لدى ام قتلها الألم حين وجدت ابنها. وفي —أساة على شاطئ البحر (un drame au bord de la mer) قتل صياد بريتاني ابنه لأنه خشي أن يلوث له اسمه وهنا قتلت فكرة الشرف العائلي فكرة الحب الأبوي. وفي

الفندق الأحمر (Aubergerouge) قتل صديق صديقه لأن فكرة الجريمة تولد الجريمة وهنا برزت فكرة التسيير الذاتي .

وفي ال فردوغو (El Verdugo) قضي على الابن البكر قتل أبيه وإخوته لإنقاذ حياته. فقد أطاع أمر الوالد الذي رغب في بقاء إسم ولقب عائلته النبيل . وهنا أزال فكرة الأسرة فكرة الحب الأبوي وفي اليكسير الطويلة (Elixir de longue vie) قتل الابن أباه للحصول على ميراثه بصورة أسرع . وهنا برزت فكرة الوراثة . وانضم مالموت المبارك (١٨٣٥) (Malmoth reconcilié) إلى مجموعة الدراسات الفلسفية . وهي قصة رجل باع نفسه للشيطان ليحيا طويلاً ويفر من المذات وهنا نجد فكرة الحياة المديدة . وقد تجلّت القوة والسحر والاشباح في كلتا الروايتين .

وبقي علينا دراسة المؤلف المجهول de chef d'œuvres inconnu (١٨٣١) والبحث عن المطلق (la recherche de l'absolu) (١٨٣٤) . إعتبرت الأولى مقدمة لمأساة لويس لامبير (Louis Lambert) فهي قصة رسام اسمه فرينوف عاش في القرن الثامن عشر قتلت مخيلته الواسعة الباحثة عن المثل قدرته الفنية ، عمل سراً لمدة عشر سنوات في رسم لوحة امرأة كان ينقحها باستمرار وقد لفه الهذيان والهام بما قضى على التوازن بين حياته الداخلية والرشاد . وحين سمح لصديقه بالاطلاع على اللوحة لم يجدا فيها إلا ألوان مشتتة وخرايش لا شكل لها وخطوطاً متداخلة

فما كان هو يتأمل منذهلاً ما يعتبره جبالاً خارقاً، ولم يتمكن الآخرون من إقناعه بالعكس وإهدائه وقد قضى في الليل. وقد أعيا بالتأزار كلايس (Balthazar Claës) الباحث عن المطلق نفسه وهلك في مأساة مشابهة. فقد كان يحاول اكتشاف وسيلة تحليل الأزوت. وتثبت بهذا الأمر الذي يؤمن بلزك أن الكيمياء الحديثة قادرة على حله وتدفع هذه الأهواء بسبب تكاليف التجارب المترتبة عليها عائلة كلايس (Claës) إلى الإفلاس ومات الكيميائي بأساً معتقداً في لحظاته الأخيرة أنه اكتشف السر الذي بحث عنه طويلاً. وينضم بعد فترة طويلة المؤلفان غامبار (Gambara) (١٨٣٧) وما سيميلادوني (Massimila Doni) (١٨٣٩) المؤلفان المخصصان للموسيقى إلى الدراسات الفلسفية. وظهرت الموسيقى فيها بشكلها المزدوج المتعلق بالتنفيذ والتأليف الذي خضع إلى نفس تجربة لويس لامبير الفكرية (Louis Lambert) أي المؤلف والتنفيذ اللذين قتلتهما وفرة المبدأ الخلاق. وماسيميلادوني فتاة جميلة وتعمية تنتمي إلى طبقة النبلاء في البندقية عانت من إهمال زوجها كاتانيو (Cataneo) الدوق المعجوز الماجن الفاجر. فقد كرس هذا المعجوز المهووس كل شيء، حتى ثروته، في سبيل لذة خيالية، أثناء بحثه عن نغم موسيقي وهو التناسق التام بين ألفة نغم الزير (دقيق الأوتار) والصوت الانساني. ونقطة الرواية الحساسة هي الفكر قاتل الفن. كذلك نجد لدى الأمير إميليو ميمي (Emilio Memmi) عشيق ماسيميلادوني (Massimilla) كيف أباد الحب المثالي قدرة الرجولة.

أعطى بلزك هذه المغامرات سرعة أضاقت نفس القارئ. فقد عرف فن الإيجاز وعقد إرادياً غرابة الأجواء.. فانطلق الشعر الغني بالضربات والمفاجآت والوحشية المأساوية والمؤامرات ولف الوجوه التي خطت لمساتها فيها الحساسية تارة أو القوة تارة أخرى، هذه الوجوه الملونة كتلائف الزجاجيات وهنا تكمن جدارة الراوي.

كان بلزك شاعراً أكثر منه فيلسوفاً. وهذا ما كان يمنعه من عرض نظرياته الفلسفية بصورة جدية. لقد كان الشعر عربية أفكاره. التي غذاها «العلم المخفى» الذي حمل «طريحته في نفسه» وقد حاول وضع الصيغ الفيزيائية النفسية فيها كما يقول فيليكس دافن (Felix Davin) وقد أشرنا إليها. إنبعثت من نص هذه القصص تأملات فلسفية ونظريات عامة تعمق فيها لويس لامبير (Louis Lambert) وقدمها لنا محررة في صيغ صالحة للتأمل. وسيرافينا التي بلغت نهاية تطورها الملائكي، أتاحت لنا الاستفادة من صياغة فلسفية شبه سويدنبرغية. فتعاليمها التي عرضت على شكل أطروحات واسعة انتقدت السبل العلمية والفلسفية حين رغبت في برهنة وجود الله وتحديد العلاقات بين العالم والإله الخالد. وقد وضع بلزك نفسه بعد فترة كتاباً موجزاً حول المغنطيسية في أورسول ميرويه (Ursule Mirouët) (١٨٤١) ودراسة حول علوم السحر والتنجيم في ابن العم بون (le cousin Pons) (١٨٤٧) ليضع بمتناول يدنا حجج أبطاله ويوضح لنا تصرفاتهم وغالباً ما كان يقترح في روايات

أخرى دافعاً من نفس الطبيعة في سبيل تحقيق نفس الغاية وقد بقي أميناً لهذه القاعدة حتى النهاية.

ونجد في أسلوب بلزك المنهاج الفيزيائي الذي وصفه كاباثيس في دراسته حول فيزيائية وأخلاقية الإنسان التي كملت بفضل ملاحظات طلابه بروسيه (Broussais)، بيشا (Bichat)، دوبويتن (Dapuytren)، وقد كان لـهذين الأخيرين اللذين غالباً ما ورد ذكرهما في الكوميديا الإنسانية زميلان من الأطباء المشهورين ديسبلين (Desplein) وبيانشون (Blanchon)، والجدير بالذكر أن التوثيق كان كاملاً وقد أكد بلزك أنه تمكن من إجراء المقارنة، وتحليل وتلخيص المؤلفات التي تركها لنا فلاسفة وأطباء العصور القديمة والعصور الوسطى والقرنين السابقين حول دماغ الإنسان . فقد غذى هذا المؤلف فكره بمؤلفات القدماء مثل كاردان (Cardan) وأبولونيوس ذوتيان (Appollonius de Tyane) وبورفير (Porphyre) وبساراسيلس (Paracelse) وبلوتين (Plautin) مما أتاح له خلق أغرب الأجواء التي عقدتها الألفاظ والأحاجي والآراء المزدوجة والتخاطر وملأها القوى اللامرئية التي نستشفها من خلال الآثار التي تتركها. الأمر الذي يجعل القوانين السائدة دون علم من صانعيها أو الخاضعين لها مقبولة لبعض الوقت سواء كانت من الفيض غير المبرر والانفجارات أو انعكاساً لأفكار ليبر بها بالتالي إجراءات وتصرفات وحسد الأبطال ، وهكذا يستمر توالي الأسباب في أجواء العالم الروحي كما في أجواء العالم الفيزيائي

ودوران الأفكار التي تشكّل «ابتكارات حقيقية وفاعلة». ونجد في معجم بلزك أن الفكر يساوي الإرادة ، وأن الفكر يعني كافة مظاهر الحياة الداخلية والعقلانية والعاطفية والإرادية. والسؤال الآن إلى أي حدّ تختلف التصورية عن الإرادية؟

كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أن الطبع البالزافي يعجز عن تصور شيء دون أن يحاول فوراً العمل على تحقيقه وتنفيذه. فكل فكرة تميل لديه إلى التجسد بعمل. فهي ليست إلا تحول المادة الأثيرية التي تغذي الدماغ، انها نوع من «المطرية» (matras) الذي يفلت منها تيار مغناطيسي. وتؤدي النتائج الأخلاقية المترتبة على هذه الملاحظة إلى الجبرية. وغالباً ما كان بلزك يشدّد على التذكير بأن مبدأ السببية هو عباد كافة استقراءاته، ولكن أن تكون سلسلة المسببات سهلة التكوين كما يتصور حين يتعلّق الأمر بإعادة بناء سلسلة من الأعمال الإنسانية وهم غرار. صحيح أنه كان يكفيه هو أن «يلقي على هذه التأكيدات الفجائية نوعاً من الضوء النفسي، بتوضيح الأسباب الغامضة التي أدّت إلى وقوعها». أفلم يكن أحد مراقبي الطبيعة الإنسانية «القادرين على قياس قوة الروابط والعلاقات والوثائق التي توحّد وتلحم بصورة سرية الأحداث ببعضها البعض» على الصعيد النفسي والأخلاقي؟ وعلمنا ألا ننسى أنه قد ذكر قوة أشهر المنومين المغناطيسيين المعاصرين مثل الدكتور كوريف (Koreff) والدكتور شابلين (Chaplain) والبارون دوبوتيه (Dupotet) وبالثازار (Balthazar) والأمير القس دو هوهنلوه

(de Hohenlohe) ، وأخذ تجاربهم ودجها بتجاربه الخاصة. أفلم يكن يعتقد أنه يملك قوة خفية مغنطيسية تتيح له التحقق من صحة لنظريات ؟ لقد كان يعتقد نفسه متبصراً.

أخيراً ، لتجنب إساءة فهم معنى كلمة فلسفة. فقد قال لنا بلزاك في الدراسة حول العلوم الخفية « ان مختلف الفلسفات تشكل أمراً واحداً ». وهو يعتبر أن الفلسفة الحقيقية والوحيدة « الممكنة » هي « الانثروبولوجيا ». وقد دعا بكل قواه لإدخال تعليم « الفلسفة السرية » إلى الجامعة. ولا شك أنه كان يخلط في أفكاره بينهما وبين السحر. « علم الأشياء الخاص » ، العلم الذي يكشف عن سير القوى ، « المنتشرة في كافة أركان الكون. وبدا أن الانثروبولوجيا تشكل لديه إعداداً أو مرحلة أولى تتيح للبعض بلوغ الكمال أو دائرة المسببات التي تعيش فيها النفوس المحظوظة والمفكرون العظماء ». وكان يصنف نفسه في هذه لفئة كما أنه كان يعتقد أنه يملك موهبة خاصة مثل نابليون موهبة معرفة ماهية الأشياء المطلقة بواسطة الحدس.

لإكمال عرض هذه المعطيات الفلسفية لا بد لنا من الإشارة إلى لعلاقات التي كان بلزاك يقيمها بينها وبين ملاحظات علماء الطبيعة مثل بينيز (Leibniz) ، شارل بونيه (Charles Bonnet) ، جيوفروا سان هيلار (Geoffroy Saint-Hilaire) ، كوفيه (Cuvier) ، لافوازييه (Lavoisier) الخ ... بواسطة فكرة وحدة التكوين لدى الكائنات . ويشكل هذا التوثيق العلمي المعروض بسداجة الجزء الضعيف في مؤلفه ، نالوقائع التي يفسر بها قوانينه الفيزيولوجية تمسك بخيط واهٍ بالنظريات

التي اخترعها كما ان الارتباط المفترض يسمح له بالاندفاع في تحليل الأسباب وخصوصاً في وصف النتائج . لقد أعطى العلم لبزرك مادة فنية صالحة للاستغلال وهنا يكمن كل شيء .

غالباً ما توفرت لنا فرص الاشارة الى منهجي لافاتيه (Lavater) وغال (Gall) فقد تبناهما بلزرك منذ بداية عهده بالكتابة . إن مصير ابطال بلزرك مائل وموجه بواسطة اشارات مرسومة على الشخص وخصوصاً في خطوط ورسم وشكل الوجه الذي يطابق تشابه الحيواني الميزات . فالوسط الفيزيائي والاجتماعي الذي يؤثر على الفرد ويعمل في سيانه هو الذي يخلق الفرق النوعي . ومن هنا نشأ علم السمات . وقد طبق بلزرك عن ايمان مبدأ لافاتيه (Lavater) الأساسي « لكل شيء فينا عله داخلية » . وإن لم يلتزم حرفياً بكافة ملاحظات معلمه ، فقد أخذ منها الاشارات العامة وتكفل هو باقامة علاقات متبادلة سلطوية أو متحررة بين الميول وبعض تقاسيم الوجه ، هذه التقاسيم التي غالباً ما تكون تقاسيمه هو . كذلك هو الأمر فيما مضى علم الجمجمة الذي اكتشفه غال (Gall) وفق تصنيف عجرات الدماغ .

ولا يتوجب علينا لا أن نذكر إسم رواية ولا أن ندرج إسم بطل بل يكفي أن نقلب صفحات الكوميديا الانسانية لنجد هذا الوصف . فقد أفرد في بداية البحث عن المطلق أربع صفحات على الأقل ليصف بدقة واسهاب شخصية بالتازار كلايس (Balthazar Claes) ، ونرى أن كلاً من هذه الدقائق الفيزيائية

تدل على أحداث في حياته، فشيتة المهية هي مشية مفكر يحرق الناس معه، وتدل تجاعيد جبينه وشعره وعينيه وجلدته ولون بشرته، ووقفاته وملابسه وشكل رأسه على المشاعر والأهواء والعادات والميزات والمساوي الكامنة في هذه النفس الانسانية. ولندكر أيضاً بالتأني والتروي الذي كان بلزك يبذله في اختيار اسماء أبطاله منها: غوسبك ز. ماركاس (Gobseck Z. Marcas) فقد حملت هذه الأسماء معنى مصيرها القاتم، «فكرتنا مليئة بالأمر الغريبة المترابطة فيما بينها وقد نعود يوماً الى العلوم الخفية والسحرية. ونرد القارئ إلى الاستعاج الذي توصل اليه السيد ييار ابراهام (Pierre Abraham) في دراسته المعمقة حول «بلزك والوجه الانساني» انه -اي بلزك- لا يعتمد على الوقائع المشهودة بل يفكر بواسطة الكلمات الصور حين يضع ويؤلف على غفلة منه علم التشكل الواسع في كوميدته. فهو لم يستعمل من علم فراسة الدماغ وعلم الفيزياء نتائجها القابلة للاعتراض بل اخذ فكرتها الاساسية الخصبة التي اتاحت له اقامة التناسب بين الشكل الخارجي والاخلاق المعنوية. لقد كان يجمع بين الافكار المتحركة، صانع الآداب هذا الدووب الذي لا يمل، كان يجمع بينها بواسطة كلمات اللغة الفرنسية وسجعها والصور الكامنة فيها. كان يضع الاشارات ويوفر الدلائل ثم يعمد إلى تفسيرها وتعليلها وفق اصطلاحه الخاص. لقد كان الفنان يرسم مصيراً بواسطة الرموز والاستعارات.

لكن اين تكمن المسؤولية الأخلاقية في كل هذا؟ ليس هناك

اي نتوء فيها . فالانسان مهزوم مسبقاً في صراعه ضد اهوائه . لقد صرخ فيليكس دوفاندينيس (Felix de Vandenesse) « ايتها الطبائع الفقيرة العصبية التي وضعها غنى تنظيمك لا ادري امام اية عبقرية دون أن تتوفر لها أية قدرة على الدفاع عن نفسها . أين هم حكامك واين هم اندادك؟ ويعتمد بلزك الفيزيولوجي الكبير والاصلاحي العظيم هذا القانون الحتمي ، القدري في حل ابطاله من كافة اخطائهم .

ماذا تضمر لنا هذه الزخرفة العلمية ؟ ان عظمته كفنان تقتضي أن يحور من ذهننا براءة وميل القانون النفساني الفيزيولوجي . وتبهرننا لعبة المشاهد . فتندفع في المناطق الوهمية والمتنوعة التي يوجزها لنا الديكور فلا نعود نرى حامله . فبعد أن جذبتنا الصور الجميلة واثرت في نفوسنا وسحرت البائنا الكلمات التي تتناسق نغماتها مع الرمز المعد وتدعمه لم نعد لنهتم بالنقد ، بالتفكير المسلي في فرضياته الأولية وبديهياته قبل موافقته عليها مثله تماماً : فلزك لا يهتم قط بأن يكون منطقياً . فلا مكان هنا لصلابة التحليل والاستنتاجات التي تدعمه . وهو يسيطر علينا ببقينه القاطع ، بواسطة المبدأ المفارق . لماذا نجهد في محاولة رقابة نهج نزل علينا من موطن الآلهة مباشرة بواسطة وسائلنا الارضية الصغيرة . « ففوة الرؤية التي تصنع الشاعر وقوة الاستنتاج التي تصنع العالم تقومان على تناغم وروابط غير مرئية غير ملموسة وخفية يضعها الرجل العادي في مصنف الظواهر المعنوية التي تخلف آثاراً فيزيائية . » ان النبي يرى ويستشج . لقد ساوى بلزك بهذه العبارة

نفسه في العبقريّة مع بالتازار كلايس (Balthazar Claës)
 فقد كان جهازه العضوي يلتقط التيارات من الأثير وينهل منها
 افكاره . ويجمعها كلها في الدماغ ويعيد تشكيل ماهية الاشياء
 من اجل استحضار حقيقي . فايّاكم وان تحدّثوه عن الهذيان . فهو
 يدرك كل ما يتحدّث عنه من اشياء وكائنات وظروف فيزيائية ادراكاً
 تاماً حسياً حالياً . فليس هناك ماض او مستقبل لفنان من مستواه .
 فهو يعتبر كافة الأمور فورية . لأنه ساحر لأنه نبي يرى ويستنتج
 ويطلق قوانين الاحداث قوانين القوى النفسية الماورائية او ما يسميه
 بالصوفية .

- ٢ -

معنى صوفية بلزك الخفي

جمع بلزك في أفكاره في مقدمة الروايات والحكايات الفلسفية (١٨٣٤) الجزء الاول من الولد الملعون والمحظورون ولويس لامبير ويسوع المسيح في الفلاندر وسيرافيتا. وقد اعترف أنه رغب في إضفاء قبس من الإيمان على مؤلفه وإغثانه بالأفكار المسيحية الحزينة حول التقمص الذي يبدأ بالآلام الدنيوية وينتهي في السماء. لقد كان يتصور هذا المؤلف ويراها كاتدرائية «كاتدرائيته هو». وكان يود أن يضيئه «بالأنوار السماوية» حتى يتجلى فيه جلال المذبح الصافي. وقد أكمل بلزك أو عدل بعض هذه الروايات التي صدرت في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٥. كما زاد الكثير على رواية لويس لامبير التي شكلت عام ١٨٣٥ مع «المحظورون وسيرافيتا مؤلفاً واحداً سمي «الكتاب الصوفي». ونحن نستجيب لهدف المؤلف حين لمجمع هذه المؤلفات نتأملها بطريقة تسمح باستخراج فكرتها العامة ونظريات بلزك حول التصوف. وبعد أن ألحقت هذه المؤلفات في السابق بالروايات والحكايات الفلسفية ضمت فيما بعد بصورة نهائية الى الدراسات الفلسفية ونزعت عنها تسمية الصوفية وان بقي العنصر الأساسي. ورغم أن هذين النوعين يمدان جذورهما في نفس الميدان في التوثيق فان المؤلفات الصوفية تحتفظ بصفاتها المميزة. فهي لا تدل

فقط على جهد فكري بناء بل تبرهن أيضاً عن إيمان واردة تبشيرية
تميزان بالعطاء الشعري .

لمتابعة تطورها لا بد لنا من وضع جدولها الزمني ومقابلة
المعطيات فيما بينها والتحقق من صحتها بواسطة ملفات خارجية
ومقارنتها مع الأحداث كما قدمت لنا في السيرة الذاتية المغلفة
بالرومنسية لويس لامبير. ولن نأخذ الا بالنقاط الأساسية الضرورية
لهذا البرهان الذي يظهر جلياً خلال المقارنة الأولى بين التواريخ . فقد
دخل بلزاك الى ثانوية فاندوم عام ١٨٠٧ وهو في الثامنة من العمر
وخرج منها عام ١٨١٣ وهو في الرابعة عشرة من عمره وقبل أن يكمل
دراسة الصف الرابع التكميلي أما لويس لامبير فقد دخل الى هذا
المعهد عام ١٨١١ وهو في الحادية عشرة من عمره بعد أن باشر
دراسته لدى عمه كاهن البحر وتخرج منه في منتصف عام ١٨١٨
بعد أن بلغ الثامنة عشرة من عمره وأتم دراسة الفلسفة . وقد تزود
بالمعرفة والثقافة التي تجعل مقبولاً نشاطه الفكري الخلاق المبكر الذي
برز في دراسة وتحليل الظواهر العجيبة الجارية في نفسه ليأخذ منها
الاستنتاجات ويصنع القوانين. والجدير بالذكر أن غالبية هذه
التجارب قد وقعت بعد عام ١٨١٣ كذلك لتقبل بدعوة بلزاك ونأخذ
بشهادة برشو دو بنهوين (Barchou de Penhoën)

رفيقه القديم وجاره في عنبر النوم : ولقد كان مهتماً ومشغولاً مثلي
تماماً بالقضايا الماورائية ، وغالباً ما كان يهذي معي حول الله وحولنا

وحول الطبيعة. « ولنعبر دليلاً على قلقه الديني الاعتراض الذي وجهه الى مرشد المعهد قبل عدة أشهر من تناوله القربان قائلاً :

« اذا كان الله هو مصدر كافة الأمور فكيف نبرر وجود السوء في هذا العالم ؟ » ونحمل دليلاً على اندفاعه الصوفي وإيمانه عند تقديمه القربان وفضوله الذي يدفعه الى القراءة سرّاً ، والاطلاع على آباء الكنيسة وأعمال الشهداء. ويتوجب علينا أن نلاحظ أن هذه الفردية قد تولدت عن الخيال والذكاء ذلك أن الطفل يريد أن يجدد في أعماقه صبر المعذبين أثناء ألمهم ، فهو يعتقد أن هذه الشجاعة تتعلق بالطباع الشخصية ويود أن يكشف وسيلة البطولة فيقوم في خياله بأعمال عظيمة بعد أن اقتنع في أعماقه بأنه واحد من هؤلاء الأولاد المشهورين مثل بيليك دولا ميراندول (Pic de la Mirandole) وباسكال (Pascal) اللذين يقرأ مغامراتهم وأعمالهم المحيذة بنهم. وتبدو لنا هذه العناصر قابلة للتحقق فيما يخص الصوفية لدى الطالب الصغير.

قد لا ترضينا كل هذه البراهين الا أن فيليكس دافين (Félix Davin) يكتفي بها ويأخذها حجة ليبرهن على مدى حداثة أصل النظام الفيزيائي الذي دارت حوله كل أفكار بلزاك في نفسه ، وفي تجاربه الأولى. ذلك أنه في عام ١٨١٣ بعد مغادرة هونوريه المدرسة وعودته الى كنف عائلته بدأ بالاطلاع على مؤلفات سوينبرغ وخصوصاً سان مارتين (Saint Martin) وقد بتنا

نعرف كم يدين هذا الفضول المستحدث الى مكتبة الأم بعد أن رأينا محاولاته الأولى الملونة بالسحر والعلوم الخفية مثل فالتورن ١٨١٦ ، جان لا بال (Jane la Pâle) (١٨٢٢) وثيقة الصلاة - ١٨٢٤ التي يبدو فيها نفوذ انسان الرغبة جلياً. وتبدو هذه الوثيقة وكأنها الفصل الأول في تاريخ الكنيسة البدائي الذي أراد لويس لامبير وصفه بتفسير استقرار عدد الشهداء وردده الى أسباب فيزيولوجية. كذلك نجد أن الرسائل التي وجهها لويس لامبير الى عمه الكاهن لوفيفر (Lefevre) لمدة ثلاث سنوات خلال دراسته العليا في باريس تدل بدقة على أفكار بلزاك فقد اتبع الاثنان دروس السوربون ومعهد فرنسا ومتحف العلوم الطبيعية ومعهد القانون في نفس الفترة كما يستدل على ذلك من الملاحظات الفلسفية (١٨١٨). وقد بلغ هذا البحث نهايته وتطوره الكامل في الفصل الثامن من سيرافيتا المسمى الطريق الذي يقود الى الله الذي أشار اليه بلزاك وعينه على أنه بحث الصلاة. وقد حكى لنا في لويس لامبير تاريخه السابق وتطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٢ وظهور الطبعة الأولى من لويس لامبير وليس فقط خلال مرحلة دراسته في فاندوم وسرد علينا تطور أفكاره الصوفية حتى عام ١٨٣٣ حين ظهرت الطبعة الثانية المضخمة والمسماة تاريخ لويس لامبير الفكري ، وحتى عام ١٨٣٥ حين ضم هذا النص المنقح والموسع (رسائل لويس لامبير) الى الكتاب الصوفي ، حتى عام ١٨٤٦ موعد النشرة النهائية التي سبقها نشرات كثيرة أدخلت عليها تعديلات مستمرة. وقد أثرت

البيليوغرافيا التي ظهر المؤلف فيها عبر لويس لامبير وسيرافيتا بالمعلومات التي جمعت من الأساطير حول الموضوع الذي شغل بلزك طوال حياته .

لم تتوقف قضية المصير الانساني عن جذب اهتمام بلزك ، وتداخلت في نشاطاته كإنسان وكاتب . وتدلل الرسالة الموجهة الى شارل نوديه (Charles Nodier) حول مقاله المسمى : التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢) على فضول قلبي لا على قلق باسكال . ذلك أن أبطاله مثل أتيان ديروفيل (Etienne d'Herouville) الطفل الملعون ودانت المحطور وغودفروا (Godefroid) رفيقه الشاب ، لويس لامبير وسيرافيتا يتوقون الى السماء ويعتبرونها منطقة الصفاء النهائي أكثر منها موطن سعادة . خصوصاً وأن الغموض والظلام الماورائي يحيط بكافة المقدسات وكافة الأديان في هذه الدنيا البائدة ، لذا نجد أن كل هؤلاء الأشخاص يرددون عبارة دانت « أنا السر الذي يُخفي على نفسي » ويحاولون اختراق اللغز ويودون رؤية الحقيقة فتبلغ تطلعاتهم حداً من العنف يدفعهم إلى طلب الموت للاقترب من المنية وقد حاول غودفروا (Godefroid) أن ينهي حياته بيده ليبلغ بسرعة أكبر منطقة الضياء . وراودت لويس لامبير فكرة بـ بعض أعضائه بنفسه .

يتوجب علينا قبل أن نحاول تفسير الأمور بشكل مثير أو : للآمال أن نعطي صدق بلزك حقه . فقد رغب في أن يفسر مصيره فاستخدم لويس لامبير واعتبره واسطة نشر من خلالها مع

التي رآها مفيدة لكل الناس. وعلينا الا ننسى أنه كان يفضل لويس لامبير وسيرافيتا على كل مؤلفاته. فقد أسر للسيدة هانسكا «يمكننا أن نصنع الأب غوريو (le Père Goriot) يوماً ولكن من المستحيل أن نصنع أكثر من سيرافيتا واحدة في حياتنا». كذلك قال «إنها كتب (أي لويس لامبير وسيرافيتا) أضعها لنفسي ولبعض القلة». ويتابع قوله «أعرف تماماً الأفكار الواجب الأخذ بها والتعبير عنها عندما أود وضع كتاب للجميع...». وإنا لتساءل هل تكشف هذه الجملة الصغيرة «أضعها لنفسي ولبعض القلة» عن سر المطلاع؟ فقد برهن روبير أمادو (Robert Amadou) ان بلزاك كان ملماً بعمق بأفكار سان مارتين وإن لم يكن بوسعنا القول بتدرج شعائري حقيقي.

تعود أصول «الفلسفة الشعوذية» التي يستند اليها بلزاك الى المسيحية الأولى وتمتد عبرها الى علوم الأساطير الشرقية البعيدة. فقد كان يسوع نفسه أحد كبار المطلعين على الخفايا وأخذ عن التقاليد الموسوية المتولدة عن التقاليد المصرية أسرار عظمت وقدرته على صنع المعجزات، هذه الأسرار التي نقلها الى الرسل وخصوصاً يوحنا المعمدان «فالرؤيا هي نشوة مكتوبة وذهول مخطوط». والجدير بالذكر أن هذا المذهب الذي يشمل «مجموع الأسرار والالهام الذي حصل منذ بداية العالم» قد علم علناً في جامعة باريس في القرن الثاني عشر. وقد انتقل «بغموض» الى السيدة غيون (Guyon) وفيبلون (Fénelon)، ليصل أخيراً الى النبي السويدي سويندبرغ (Swedenberg) وزميقه القديس مارتان

(Saint Martin) «الفيلسوف المجهول». لقد حاول سويدنبرغ أن يعيد كنيسة روما التي اضطهدت الكنيسة الداخلية وعقدت الديانات المسيحية بالطقوس الشكلية الى بساطتها الأولى فخفض الى حد بعيد ممارسة طقوس العبادة وحظر وساطة جماعة الكليروس ولم يشك بلزك في عام ١٨٣٤ أن سويدنبرغ سيقتصر. قال شك يلاً قلب فرنسا والكاثوليكية تفقد السيطرة المعنوية على العالم بعد أن فقدت قيادته السياسية. ولا شك أن روما الكاثوليكية تحتاج في سقوطها الى نفس الوقت الذي تطلبه سقوط روما الوثنية. أي شكل سيتخذ الشعور الديني؟ ما هو التعبير الجديد عنه؟ الجواب هو سر المستقبل (مقدمة الكتاب المتصوف).

لقد كان لويس لامبير جهداً علمياً لتوحيد كافة أشكال وكل قوى الطبيعة. وسيرافينا هي الانجاز الذي يرنو إلى تحقيق التكامل بين الفكر والوحدة بواسطة جهاز خفي. وقد اعتمد المؤلفان على مبدأ واحد هو الترابط الكامل بين الحيا والروح : وتبين هذا الأمر يومياً ملاحظات الفيزيائيين التي تزداد دقة وتنوع. فهي تحضر لعلم الاكتشافات المثيرة. ولا بد من القول أن بلزك قد جهد لإعطاء حونة للمظاهر الغريبة والهبات الخارقة التي يعتر بها ملهمين من أصحاب الرؤى. فقد اراد إحلال العلمية مكان العلوم لسحرية الخفية ليبرهن أولاً ما يعتبره العامة امتيازاً وخاصة رائعة وليعم مارسها لدى النابغين. وقد أوضح بلزك بالفعل النظرية في رسالته الى مارل نوديه حول مقاله المسمى التقمص الانساني والبعث (١٨٣٢).

فهذه الرسالة تشكل دراسة للمعتقدات والميول الصوفية-العلمية. ذلك أن الانسان يملك «قدرات كمول» وقدرات ما زالت مجهولة، لا تحمل اسماً ولا يمكن مراقبتها أو قدرات منسية أو مفقودة أو ضامرة هزيلة. وهذه القدرات وحدها هي التي تفسر مقاومة الشهداء المسيحيين الأول لأفطع أنواع التعذيب. ذلك أن فكرة الايمان تقضي على فكرة الألم لديهم فالكنيسة الأولى هي عهد الفكر. وقد اعتمد بلزك حقاً على رجل بوفون (Buffon) المزدوج : فالرجل الداخلي والرجل الخارجي في تضاد مستمر. والتيار المغناطيسي الذي يخرج من الدماغ والمسمى بالارادة ، هو قوة لم تعرف أولياتها ولم تقيم قدراتها ولم يدرس استعمالها وتطبيقها. كذلك يعتبر الاتصال بالادراك ، ووضوح الرؤيا ، والروبصة والذهول والرؤى والاستحواذ الشيطاني والشفاء ظواهر ناتجة ومتولدة عن انعكاس تيار مغنطيسي ، وهو يوضح بهذا المعجزات التي حققها يسوع أو رسوله سواء باللمس أو عن بعد. وهو يعتقد أن علماء الفيزياء سيبلغون نتائج مذهشة بتحديدهم العلاقات الكمية والنوعية بين الفكر والارادة وسيجدون الوسائل التي توفر لهم إمكانية التوغل في المنطقة الدقيقة من الفكر والمشاعر. حتى يتوصل الإنسان المدرب إلى الاتصال بالفكر مع الآخرين وإلى قراءة الأدمغة دون حاجة للرجوع إلى الحواس الجسدية.

بم يحسن كمال الحواس هذا العلاقات بين الانسان والاله ؟ انه الهدف الذي يرمي اليه بلزك : « فلا بد من اعطاء أجنحة من أجل النفاذ الى الحرم الذي يختبئ فيه الله عن عيوننا » (المحظورون). فقد

حان الوقت لبناء الديانات على الكائن الداخلي الذي وصفه الجلال الأعظم فينا. انها غريزة شبيهة بتلك التي تملكها الحيوانات وان كانت أعمق وأسمى بموضوعها. لقد أشار بلزاك الى بداية الحدس الذي يبسط المعرفة ويصل الذات الفردية باصداء الكلمات الالهية أي فكر الله أو وعيه لذاته.

ذلك أن «الكلمة تحرك العالم» و«الايمان هو الشعور بالله ولا بد من الاحساس بالله». ويرجح هذا اليقين القائم على التجربة على كافة الدلائل التي قدمها الفلاسفة. انه الايمان اللاهوتي الفلسفي الذي يتصل بواسطته الخلق بكامله بصورة مباشرة مع الأفلاك العليا. و«كل شيء يتحدث وينصت فوق هذه الأرض الفانية» ويساهم في هذا الاتصال البدائي مع الخالق. الحصاة، والصفدع والزهرة والفكرة، وهي زهرة روحية والغيوم تتصل مع الكلمة الالهية وفق صيغة من الأخوة. وتحرك دون توقف لتحقيق الوحدة الكبرى. وقد بلغت الانسانية المتمثلة في الخنثى سيرافيتوس - سيرافيتا (Séraphitus-Seraphita) الى المرحلة الملائكية والتجرد عن الجسد وفق نظرية سويدنبرغ (Swedenberg) وهي تحقق بتحررها التدريجي من المادة تحولاتها النفسية الروحية الاخيرة التي تعدها للتكامل مع المبدأ الشامل. وكلما اقتربت من هذا الانتصار عبر التجارب الأرضية والترفع كلما خفت طبيعتها وتخلصت من أثقالها فنصبح قادرة على القيام بكافة الأعمال (preternaturels) الطبيعية الخارقة التي عددناها. ويتم هذا التسامي بفضل الطاقة الطبيعية المتوفرة لدى كل فرد.

وتستقل الفكرة من فلك إلى فلك اعلی حتى تبلغ نهاية مصيرها وهنا تتم معرفة فحوى الفكرة الأولى التي تفرعت ونجمت عنها بقية الافكار. ويرمز تدرج يعقوب (Jacob) وصراعه مع الملاك إلى الجهود الارادية. ولا شك أن فكرة بلزك الاساسية تتلخص في احدى البديهيات التي اعلنها لويس لامبير (Louis Lambert) «ان الانسان بتوحيده بين جسده والفكرة البسيطة يستطيع أن يبلغ الحقيقة في نفسه» وهكذا نجد أن الملهم الصغير قد بدأ بانتقاد الحقائق المسيحية بصورة سلبية. وعرض عن طريق البيئات فرائض حول مادية الفكر وقوته المغنطيسية.

تتقدم سيرافينا في ميدان المعرفة. وتدفع في الفصل المسمى بنجوم المحرمات بيكر (Becker) الراعي التشكك إلى الاعتراف بمعجز العقل عن النفاذ إلى اللغز الذي يحيط بالعالم وحل قضايا المصير. وتدرس وجود الله الذي تنص عليه فكرة اللانهاية التي ترافق الانسان وتلاحقه. وتجمع بحمی عنيفة تفنيد النظريات التقليدية والتناقضات الناتجة عنها التي اخذ بها او دحضها الماديون والروحانيون. وحين تعتقد انها ردت على كافة حججهم تبدأ بعرض نظرياتها مستندة إلى يقينها القائم على التجربة ومعرفة الاله. انني اؤمن بالله لأنني شعرت به. آه للمهزلة ! ألا تبدأ كافة العلوم باعلان مبدأ؟ العلوم الفيزيائية التي تعترف بوجود قوة متميزة عن الاجسام ، قوة تعطي هذه الاجسام قدرتها على الحركة لا تعرف شيئاً عن طبيعة هذه الحركة وتكتفي بالحكم على آثارها. اذن كيف يمكن لدكائنا ان

يحد في هذه الطرق وسيلة المعرفة حين يتعلق الأمر بالله بوجوده ويجوهره؟ ان علة الايمان شخصية اما موضوعها فغير قابل للبرهان. وهو يعني ببعده وعمق يتناسبان مع حرارة ايمان كل شخص.

ويدلنا الفصل الثامن من سيرافيتا واسمه الطريق الموصل إلى الله (Le chemin pour aller à Dieu) على الوسيلة الوحيدة التي نملكها لبلوغ مرحلة الملائكية : انها الصلاة. ويصف لنا بلزاه مطولاً كمال وروعة الرؤى التي يعتقد انه قد حصل عليها مكافأة على ايمانه اللاهوتي الفلسفي. وقد صرخ قائلاً من يفهمكم عظمة وروعة وقوة الصلاة؟ وتدل هذه العبارة على سمو روح اذهلها التأمل : فهي تتذوق ييقين مبین «اكثر الملذات طيبة» «واعذبها». «ملذات النشوة الالهية». ونحن نعرف جيداً أن المؤلف قد عبر عن هذه الرغبات الملتهبة، وهذه التطلعات وهذه الرؤى الالهية بكلمات وعبارات مأخوذة بصورة حرفية عن مؤلف صديقه القديس مارتين (Saint Martin) رجل الرغبة. وهذا يدفعنا إلى الشك بأن هذه الفورات والشطحات تجاوزت النطاق الادبي. ولكن هذا لا يمنع أن بعض القلوب الباحثة عن الله قد وصلت اليه بفضلها. كما حصل للرسم الهولندي فركاد (Verkade) المتسمي إلى مجموعة نبيس (Nabis) فقد نقلته قراءة سيرافيتا إلى عالم خارق ودفعته على طريق التقوى والورع الذي قاده إلى دير بيرون (Beuron) حيث قدم نذره. والجدير بالذكر أن كافة الاديان «مؤثرة» وهي تقود جميعها إلى الغاية النهائية. فقد كان سان مارتين يرى أن تأملات الالهام الصوفي تسكب في الروح نور

الحب الابددي وزيت الحبور الداخلي : وكان بلزاك يحدد آثار هذه الديانة بقوله : «ان هذا المذهب يعطي مفتاح العالم الأزلي ويفسر الوجود بتحويلات تقود الانسان إلى مصير رائع ويحرر الواجب من تدرجه القانوني ويسلط على آلام الحياة نعومة الصاحبية التي لا تزول ويأمر بالترفع عن الآلام باضفاء لا ادري اي عاطفة امومة على الملاك الذي نحمله إلى السماء . انها الرواقية وقد بات لها مستقبلها . ولا شك ان الصلاة المستمرة والحب الصافي يشكلان عناصر هذا الايمان النابع عن كاثوليكية الكنيسة الرومانية والمهيأ لاعتناق مسيحية الكنيسة الأولى» (الزنبق في الوادي (Le lys dans la vallée) . ولكن لا شيء يمنع من التمسك بالكاثوليكية والتقييد بتعاليمها كما فعلت هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsau) . وسنرى فيما بعد اهمية هذه الحرية في الخيار .

* * *

من الضروري معرفة اصل وطبيعة هذه الأفكار كما يعرضها بلزاك في لويس لامبير (Louis Lambert) اذا اردنا فهم دورها الأدبي وبعد الرواية الفلسفي . لقد قامت هذه المبادئ على مادية الفكر والارادة وعلى جوهرهما . فالأفكار هي انبعاث ، وتحويلات رائعة في الجوهر الانساني «والجوهر الكهربائي» «والجوهر الفيزيائي» التي يتشكل منها الكائن المحرك أي «الكائن الداخلي في اعماقنا» الذي يجمع هذه الماهية بتقلصه ثم يقذفها بحركة ثانية إلى الخارج او يعهد بها «إلى اجسام مادية» : وتختلف هذه الوفرة من البيئات الفكرة

وتركها في الاماكن غير المعروفة من الأعضاء حيث تتولد : ولا يعطينا هذا الفيض من الصور أي تحديد لطبيعة « تلك التيارات ». ويقول بلزاك لمن يمكن أن ننسب - ان لم ننسب اليه - هذه القوة الخفية التي تتصب في النظرات لتصق العقبات بأمر من العقل ؟ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل أن الروائي يصف نفسه وقد عصفت الافكار في داخله . كان يغمض عينيه فتراكض اليه فهل كانت تمنح نفسها له غامضة ام واضحة . هل كان يفتح عينيه ؟ فتطير جهاعات في الهواء حوله . خصوصاً وان « اصغر التفاصيل وادقها » يؤكد صحة الفكرة بتفسيره الفوري لها . وكان هذا التمرين يتكرر بنسبة مرتفعة مع بلزاك . فنحن نعرف انه كان يذهب بعيداً في مراقبته للأشياء وينطلق من الوصف بكل ظلال فوارقه ليصل إلى ادق اموره . كان يلاحق الفكرة ويطلع على ادق دلائلها . وتحول كافة الاشياء الى افكار لديه لأنه يعتبر الفهم هو الرؤية المسبقة « باختصار العلل » هو الرسم هو التفكير . فالفكرة تحرك الشيء المادي هذا الشيء الذي يثير الأفكار بدوره . فهو يشكل ارتجاجاً لها في الفضاء . وتملك هذه الافكار بذاتها وبالآثار التي تتركها في الرؤية الداخلية حياة خاصة بها . انها تشكل فينا نظاماً متكاملاً شبيهاً بمملكة الطبيعة - نوعاً من الازهار ... « انها شبيهة بالنجوم اللامتناهية التي لا تحصى . وهي تعيش ايضاً في الخارج . تطاردنا وتلاحقنا وتعمل احياناً بصورة منفردة و احياناً بصورة جماعية ». وتظهر المغامرات المديرة للفكرة السعيدة ١٨٣٤

Les aventures administratives d'une idée heureuse

التي رويت بحمى شيطانية هازئة
 احدى الافكار وقد ارتفعت وتعاظمت وايتلمت واكلت الرجال
 والنساء والاطفال والآمال والثروات عبر العصور. ويعتبر الروائي الحالم
 بطبعه أن الافكار تتحول إلى عبق عطور وألوان واصوات واشكال.
 ويطلق الفنان اثناء تأمله عقلانيات وراء الفكرة تصقلها كحجر كريم
 تنشر كل صفحة من صفحاته اشاعات لماعة. ومن المفيد الملاحظة
 أن الكردينال مرسيه (Mercier) الفيلسوف الكبير قد رن «نجاح
 بلزك إلى خصوبة مخيلته». التي شجعته وغذتها تصورات الفكرة
 العاطفية (علم النفس المجلد الثالث ص ١٧١ الكان)
 (Psychologie TIII , 171 Alcan) ولتأخذ امثلة على ذلك أن
 «شهوة الراعي بيروتو» (Birotteau) تدفع إلى اعتباره شاباً يتأمل
 باعجاب المرأة التي سيعجب : كعاشق يودع عشيقته الأولى بحنان
 او كمعجوز يلقي النظرة الاخيرة على مزروعاته التي عني بها بنفسه.

حين تنتقل الآنسة كامار (Melle Gamard) من الانتقام
 السري إلى العداء المفضوح للراعي بيروتو «لم يشك هذا الأخير لحظة
 واحدة انه عاش في ظل حقد سلط عليه نظراته وراقبه باستمرار».
 وسرعان ما يتخيل القارئ طائراً بمنحاً صغيراً وقد افتتن وسحر بكاسر
 جارج. وتبدأ الفصحى تقارن الآنسة غامار (Gamard) بالكواسر
 فتلمح في كل لحظة اصابع الآنسة المعكوفة والمحددة الجاهزة دائماً
 لتغرز في قلبه. وتمد الاشكال اجنحتها وتحدد جوانبها وتدور في حقل
 الرؤية وتملأه بالدوائر المهددة : وهكذا ينتهي التطور. كانت العانس

فرحة بحياتها التي يغذيها شعور مليء بالانفعالات الشعور بالانتقام فكانت تسعد في التحليق حول الكاهن والتنقل عليه كما يخلق الطائر الكاسر حول ضحيته قبل اقتراسها. ولا تهمل أي مرحلة من مراحل الصيد: «فقد وضعت الآنسة منذ عهد بعيد خطة لم يكن بوسع الكاهن المذهول تبينها، خطة سرعان ما باشرت بتطبيقها». من لا يتذكر ممن راقبها، مناورات الصقر وقد ضيق من حلقات طيرانه قبل الانقضاض على عصفور جمده الرعب في الأرض؟ بتوقفنا لدى اهم شخصيات الكوميديا الانسانية تتضاعف لدينا امثلة الانعكاس التي توسع القوام والحركات وتمدها حتى النجوم أن لم ترمها في اعماق وغياهب اللجج.

انه العمل الرهيب الذي يدور تحت سقف الأب غرانديه (le Père Grandet) ، انها مأساة بورجوازية لا سم فيها ولا خنجر، مأساة لا يراق فيها الدم ولكنها تبدو على ابطالها اقصى من كافة المآسي التي ارتكبت في عائلة اتريد (Atrides) الشهيرة. ان الآنسة اسكرينيون (Melle d'Escrignon) هي التي «تخلف اخاها ومذاهبه ومعتقداته المهذمة». تفهموا خيبة املها لرؤية ابن شقيقها فيكتورنيان (Victurnien) الماركيز يعقد زواجا غير متكافئ مع وريثة بورجوازية. وتبدو في حزنها واعظم من اي وقت مضى «شبيهة» بماريوس وقد وقف على اطلال قرطاجة « انها يبيريت لورين (Pierrette Lorrain) التعيسة ويكفي لاعطاء بعد كبير لقصتها التذكير بأن بياتريكس سانسي (Béatrix Censi) قد

عذبت لأنها نقلت الحدث في العصور الوسطى في روما. عذبت بنفس الملاحظات والترمت والأهواء المقززة التي ادت ببيريت إلى القبر. انها يون (Pons) الساخر الذي يعمد لاشباع حبه للروائع القديمة إلى اعمال تخدم السفراء في تحديد ابطال التحالفات. «انها كاموزو» (Camusot) القاضي الذي يبحث كامراً عصفت بقلها الغيرة عن كافة الاحتمالات لاشباع حبه للحقيقة ، وينقب عنها بمنجر الشك كما يشق الكاهن بطن ضحيته».

غالباً ما تلجأ الفكرة إلى الصورة التي تلون بطل المأساة الجارية فتعطيه قناعاً جديداً وترفع من شأنه وتفضح للعيون بتنوع مراحل الدور ألوان الفكر وقضايا المشاعر. وتخرج من هذه التطورات الشاعرية شخصية اقوى ارفع احساساً، شخصية تثري بالتعابير وبالظلال الملونة. وهكذا يكشف لنا بلزك عن اهوائه الفكرية انه يرغب في انفاذ مادة ادراكه دون أن يتوصل إلى ذلك. فالمادة تتولد بصورة اكسر وفرة من مخيلته. وقد دلنا الروائي بقوله: خلق الفكرة واضفاء الشاعرية عليها، واغناء الشعر بالافكار وتعظيمها على القدرتين اللتين تجذبان كقطبين مغنطيسيين العناصر التي تغذي فكرة الخلاق.

لا شيء يستدعي هنا للانتقاد الفلسفي للنظام الملهم ولا للقضايا النفسية الفيزيولوجية. ولنأخذ بعض الأحكام التي صاغها بلزك بنفسه. لقد أكد في لويس لامبير (Louis Lambert) ثم في المقدمة (Avant-propos) عام ١٨٤٢ أن فرضياته وحول العالم

الأخلاقي الجديد» لا يمكن قط أن «تؤثر على العلاقات الأكيمة والضرورية القائمة بين العالم والله» ولا «ان تهز المبادئ الكاثوليكية». ويتناقض هذا الادعاء مع دور الرسول البسيط الذي منحه يسوع المسيح وتفسيره المغنطيسي الصرف لمعجزاته. فقد حرم صانع هذه الخوارق من ألوهيته ومن عظمته، بحظره الرحمة الرافعة والمقدسة فالكاتب لا يحتاج إليها في خوارقه الجذرية.

كانت الفكرة الاساسية لبسوع المسيح في الفلاندر (Jésus Christ en Flandre) توفر وسيلة مصالحة وسط هذه الآراء المتناقضة. فهذه الرواية خيالية في جزئها الأول، صوفية في جزئها الثاني وقد احتفظ كل من الجزئين بمعناه. فكان الثاني خفياً وكان الأول فلسفياً. لقد صدر الجزء الأول في نسختين الصفر (Zéro) ورقصة الحجارة (la danse des Pierres). وتدل هذه العناوين على رمز ناطق. فكنيسة فرنسا كانت تساوي عام ١٨٣٠ الصفر. إنها امرأة عجوز غرقت في الجداول، وقد وصفها أحد المارة «بأنها مستديرة كالقلنسوة.. انها سوداء وفارغة». لقد بدت الكنيسة المؤسسة الالهية التي تشكل وفق قول مؤسسها تحداً مستمر للقوى الضارة على مر العصور منارة. لقد تحولت الى فكرة، كما كانت قبل تشكلها بسبب العادات والاصرحة. لقد كانت «الكمال الأول» أي قوة متحركة قوة فعالة أبطل مفعولها، ففكرة الشك والريبة تسيطر على فكرة الايمان وتستعيد رقصة الحجارة (la danse des Pierres) نفس الفكرة. فبعد سقوط شارل العاشر يشهد بلزاك

إحتفال يوم السبت الليلى في إحدى الكنائس. فيرى أن كافة أجزاء
 المبنى تصدع وتبدأ بالتراقص على أصداء الأرغن التي تعزف.
 ويشكل هذا الحلم «رؤى مؤثرة للأفكار الدينية وهي تفترس بعضها
 البعض وتهاوى فوق بعضها البعض وقد هدمتها الريبة والجحود التي
 تشكل بدورها أفكاراً». ولا يعد بوسعنا أن نفاجأ برؤية الأفكار «هذه
 القوى الحية وقد انتصبت ضد بعضها البعض وتصارعت فيما بينها.
 والجدير بالذكر ان بعضها يتلف لافتقاره الى القوة أو الغذاء». ولكنه
 نادراً ما يموت. ويبين الجزء الثالث من يسوع المسيح في الفلاندر كم
 هي معمرة. لقد هجرت النفوس المتطلعة الى تقدم المعرفة والكمال
 الكاثوليكية فيما بقي البسطاء «والمنبوذون من المجتمع وهؤلاء المطرودون
 من جامعاتها ومدارسها اوفياء لمعتقداتهم وحافظوا مع صفاتهم الروحي
 على قوة هذا الايمان الذي ينقذهم في الوقت الذي يرى فيه الأناس
 المتفوقون الفخورون بقدراتهم الكبيرة أوجاعهم تزداد مع تزايد
 خيلائهم وآلامهم تتعاظم مع تعاظم إلهامهم». (المقدمة الى الدراسات
 الفلسفية) () Introduction aux études
 Philosophiques).

وما زالت فكرة الايمان تملك احتياطيها وتتطلع الى تحقيق روائع
 حضارية. ذلك أن المؤلف بدلاً من أن يتوقف عند استنتاجه المتشائم
 يتبنى موقف المطلقين. فهو يشجع الشعب على اعتناق الكاثوليكية في
 نفس الوقت الذي يحاول فيه نشر عقيدة الوحي التي تشكل بالنسبة

إليه كل الحقيقة. فالباطنية الماريتنية والسويدنبرغية تغذي الكائن الكامن في أعماقه وتجعله يحيا.

أما فيما يخص المادية الرومنسية التي يملأ بها لوحاته من ديكور إلهي ومواكب ملائكية وتناغم موسيقي بين الكواكب ومزاهر ذهبية وقيثارات وتراتيل وأنوار سماوية إلخ.. فقد اعترف بنفسه لنودييه (Nadier) أنها تشكل «أوهاماً يجب أن يغذي نفسه بها وأنه يبق نظرياته النفسية الفيزيولوجية منفصلة. إنها رؤى شاعرية يضفي عليها حساً انتشائياً». وقد عمد في سيرافيتا الى وضع التأمل الديني والرؤى الفنية وأحلام النوم في مستوى واحد، فهي رغم اختلافها في وسائلها إلا أنها تؤدي إلى نفس الشيء السامي، إلى الكشف الذاتي عن هذه الخفايا العظيمة التي يلتقي فيها الفكر بالمطلق.

ويمكننا أن نتساءل هل كان بلزاك يؤمن باله خاص؟ ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الخنثى سيرافيتا يتربع غطاءه الارضي ويقرب من ضفة السماء على شكل ملاك تحول الى «نقطة لهب» وبدأ يطلق هذه العبارة: «أيها الخالد، أيها الخالد، أيها الخالد!» فيمتلك في هذه اللحظة اللانهاية؛ هل تدل هذه العبارة على الجوهر الوحيد الذي يتحول إليه كل كائن حي سواء كان مادياً أم روحياً، ليتكامل في حالته الأولى مع الروح الشاملة، النقطة التي انبعث منها؟ إلا أن بلزاك كان قد أنكر مراراً إيمانه بوحدة الوجود، ورغم هذا فان أفكاره تبقى مختلطة حول هذه النقطة كأفكار بعض المؤلفين

المعاصرين مثل لامرتين (Lamartine) وجورج ساند (George Sand) وموسيه (Musset).

لقد فتحت سيرافيتا أمام الجيل الرومنسي ، الذي ألقي فريسة للأوهام ونخابت آماله في بحثه عن السعادة الوحيدة ، طريقاً يرتفع الى الرجاء الإلهي لدفعه إلى التخلص من كآبته . وتعتبر هذه الأوديسة اللاهوتية مع لويس لامبير (Louis Lambert) أساس الأفلاطونية الحديثة . فقد درج إسم مؤلفها بلوتين في قائمة المؤلفين التي سمح لامبير لنفسه بقراءتهم . والشبه كبير بينهما سواء فيما خصص الله أو الكلمة أو انبعاث الروح الفردية وعودتها الى الروح الشاملة ومبادئ الفضيلة والصلاة . ورغم بعض المظاهر فهناك بعض الخلافات الأساسية التي تفصل هذه الفلسفة وتميزها عن العقيدة المسيحية وهذا الأمر لا يقتصر على علم لاهوت الثلاث بل يتجاوزه الى المذهب الأخلاقي والصوفي الذي يؤدي الى الإتحاد مع الله ... ويعتبر هذا الاتحاد ثمرة التجرد ، الفكري لا النعمة التي لا «تملك فيه أية حصة» . كذلك الأمر بالنسبة لجهود الارادة ، لأن الفضيلة ليست إلا تفحص الروح لعنصر غريب هو المادة . وهذا أمر يتم بصورة شبه آلية .

في نهاية فيزيولوجية الزواج la Physiologie du mariage يدعي مهاجر عجوز أنه أتى من ألمانيا بمذهب المسيحية الشعري والاستعلائي . ولنفهم من هذا أن فكر بلزاك قد تأثر بهذا التيار اللاهوتي الفلسفي فقد درس بعض مؤلفات يعقوب بوهم

(Jacob Böhme) وإقتبس الكثير من موجز مؤلفات سويدنبيرغ (l'Abrégé des œuvres de Swedenberg) وأخذ عن كتابين لسان مارتان رجل الرغبة (l'homme de désir) ووزارة الرجل الروح (Ministère de l'homme-Esprit) واطلع على سحابة فوق المقدسات أو شيء لا تعرف فلسفتنا المعاصرة الأنانية بوجوده لايكارتسهوزن (Eckartshausen). كذلك خضع لتأثرات معاصرة أخرى مرتبطة باللاهوت الفلسفي الآتي من المانيا: السيدة ستيل (Mme Staël)، الكاهن انسيون (Ancillon)، بادر (Baader) دون ذكر الطبيعيين والفلاسفة. والسؤال الآن هل اكتفى بلزك بتعميم نظام الملهمين؟ رغم شغفه بأسلافه حاول بلزك الحكم على حبورهم «بالمهنية الديكارتية» وتوضيح نظرياتهم الضبابية «وان يدخل ضمن حدود المنطق هذا السيل من العبارات الغامضة». وكما حاول التوفيق بين اللاهوت الفلسفي والكاثوليكية كذلك عمل على الجمع بين الإلهام والحدودية العلمية فهذه نقطة وُصُولهم. لقد لاحظنا غالباً التناقض القائم بين الصوفية الخفية ومادية الفلاسفة أعضاء الجامعات العلمية الذين يحظرون كل تدخل غامض في نظام الطبيعة بينما تحفل المارتنية بهذه الأمور. وقد اكتسبت لغة المراسلات التي تربط بين كافة الكائنات انطلاقاً من ذرة الرمل إلى الكوكب نوعاً من القوام والكثافة. لقد قبل بلزك بوجود استمرارية فيزيائية عبر كافة الكرات وقد تحدثنا عن هذه السلسلة من

العلل التي انتقدها جوزيف دوميتير (Joseph de Maistre) . وهي تتوغل حتى العالم الماورائي بفضل كمال قدراتنا المستظر .

لقد أثر ما كان يدعو به بلزك بالصوفية بعمق على حياته ومؤلفاته . فقد كان هو الذي يميل بطبعه الى الافراح المحسوسة ، الشهوانية يسعد بالتحليق في أجواء الأثير ، وقد بقي رغم انطلاقاته العظيمة ، معادياً للممارسات العبادة الدقيقة .

لقد أعلن في ٢١ حزيران ١٨٤٠ رسماً للسيدة هانسكا (Hanska) أن هذه هي ديانتها ، وقال لها في ١٢ تموز ١٨٤٢ أنها تشكل أعماق قواده . «أنت تعرفين تماماً حقيقة مذاهبي فانا لست بأرثوذكسي ولا أؤمن قط بالكنيسة الرومانية . واعتقد انه إذا ما كان من أمر بمثل جدارتها ، فهي التحولات الانسانية التي تدفع الكائن نحو مناطق مجهولة . فهذا قانون المخلوقات التي تقل عنا شأنًا ، لذا لا بد أن يكون قانون المخلوقات الاسمي درجة ، مذهب سويدينبرغ الذي يعتبر بالمفهوم المسيحي تكراراً لأفكار قديمة هو ديانتي مع ما أضفت من حجج حول الادراكية لله . لقد كان يفتش عن شيء مختلف فلم يجد لحياة آماله أكثر اماناً من العودة الى الكنيسة القديمة الذي غالباً ما رده إليها اعجابه وافتتانه ؛ كالعصفور الذي يحط بعد أن أتعبه تحليقه الطويل الجريء على الصليب الذهبي للجرس الذي عرفه ويحيطه بمناحيه .

لقد قدم بلزك قربانه الأول بعد ان اعترف في ١٤ آذار ١٨٥٠ في بولونيا خلال احتفال زواجه بالسيدة هانسا . وعند عودته

الى باريس أصر على استدعاء كاهن كنيسته وتحدث معه طويلاً ويقول الدكتور ناكوار (Nacquart) «لقد أصبحت الديانة التعبير الأسمى عن الكون». وتناول العليل بيديه مسحة الموتى صباح يوم الأحد في ١٨ آب مشيراً إلى ادراكه لما يجري حوله. وقد غالبه الأجل في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف من ذلك المساء.

لم يكن بلزك يجد أي تناقض* أو غضاضة في هذا الجمع بين الصوفية الخفية والكاثوليكية. بل أكثر من هذا كان يعتبر أن هذين الشكلين الدينيين متكاملين بصورة فعالة وضرورية. لقد كانت الصوفية تحمل مكان العقائد وتعطيها نوعاً من القيم والمفاهيم العلمية حول المغنطيسية وعلم النفس الفيزيولوجي والتطور. ولم تكن هذه العقيدة الأثرية تستبعد قط امكانية المساهمة في قانون الأخلاق الكاثوليكية الظاهري. وفي شعائره. وتعود تصريحات سوينبرغ التي ذكرناها إلى نفس عهد تأليف أورسول ميروويه (Ursule Mirouët) التي ظهرت في آب أيلول ١٨٤٢. وقد عبرت هذه الرواية عن هذه الحالة النفسية واستغلت معطياتها. ونجد أن الروائي يستخدم شخصيات مثالية لينفخ فيها معتقداته فتتقل هذه من حياته الى مؤلفاته. وتصبح الصوفية مادة فنية. وغالباً ما تختلط مع الخيال إلا أنها وإن كانت تهدف إلى تحقيق نفس الآثار الناجمة عن الخيال تتميز عنه بموضوعها الذي يتطرق إلى العلاقات بين الروح والرب أو مع مناطق المطلق بواسطة الأعمال الفاضلة. وحين يدخل بلزك

أحداثاً خارقة في العقدة الرومنسية فإن هذه الأحداث تتخذ بنظره قيمة مثبتة ومقنعة ، فيما تتسم بنظرنا نحن بصيغة من الجدية والخطورة التي تعطي القصة طابعاً أعمق. ونأبى بتدقيقنا اعتبار هذه الوقائع المستغلة كوسائل درامية لتقوية وتأزيم المناورة وإعداد تطوراتها المحتملة وإن كنا نعرف أن بلزك كان يعتبرها ممكنة ويؤكد أنه قد شهد وقوع مثلها حقيقة ويدفعنا هذا الأمر إلى الالتزام بعفويته وتمسك بها للدخول في انقياد الأبطال.

ولا بد لنا من التذكير أن بلزك قد أكد في رسالته إلى نوديه (Nodier) (١٨٣٢) على الاحداث النفسية في (oneiro-critique) ، وعلى «روبصة الكائن الداخلي» و«مظاهر النوم الغريبة» التي ينعدم فيها المكان والزمان. وقد جاءت أورسول ميرويه (Ursule Mirouet) بعد تسع سنوات لتكوّن الاستعمال الرومنسي لكافة هذه النظريات. لقد سرق مينوريه لوفروه (Minoret Levraut) ثم احرق وصية عمه الدكتور مينوريه (Minoret) التي يعطي فيها كافة أمواله لربيته اليتيمة. فيظهر الميث للفتاة عدّة مرات في منامها ويكشف لها عن أعمال مينوريه لوفروه (Minoret Levraut) الجرمية التي اساءته ويدلها على وسائل استعادة حقها. وتتمكن أورسول من هذا بفضل مساعدة الكاهن شابرون (Chaperon) تمثل أورسول الورع وترمز اليه. ويستمتع الكاهن إلى ما تسره اليه برضى كامل دون أن يشك لحظة واحدة بصحة ظهور الميث لها والأوامر التي يعطيها من العالم الثاني. بل أكثر

من هذا يتخذ من كافة هذه الأمور حجة لدفع المجرم مينوريه لوفروه (Minoret Levrault) إلى التوبة وإصلاح الخطأ. وتلعب الصوفية الخفية دوراً كبيراً في الرواية.. وقد استخدمها بلزاك ثانية في ابن العم بون (le Cousin Pons) (١٨٤٧) حيث عرض لنا آراءه حول التنبؤ والرؤى والظواهر المثبتة والحقيقة الناتجة عن العلوم الخفية. والجدير بالذكر أن نوديه قد ترك في سمارا (Smarra) مكاناً للخيال والغربة كذلك فعلت جورج صاند (George Sand) في ليليا (Lelia). ونحن نعرف أن الرومنسيين كانوا شغوفين بهذا النوع من الآداب. وما يستحق الملاحظة في أورسول ميرويه (Ursule Mirouet) هو الجمع الحميم بين عاملين الأعمال الخارقة والكاثوليكية الصرفة. ويرمي تفسير هذه الظواهر إلى حل ما تسميه الكنيسة الكاثوليكية بالمعجزات بواسطة لعبة القوى الطبيعية غير المعروفة جيداً بعد أي ارادتنا واستمرار القدرات بعد الوفاة. ويجمع الكاهن شايرون (Chaperon) نموذج كمال الكهنوت والإيمان الكامل بين هذه الهبات السامية والعلم وانفتاح الأفق. وهو لا يتردد لحظة واحدة على التصديق بارادته الدينية على صحة هذه الظواهر الغريبة الخارقة. وهو يوضحها لاورسول بنظرية بلزاك حول الأفكار هذه الكائنات التي تملك لذاتها حياة خاصة في العالم الروحي ، وهي ذات أشكال تعجز حواسنا الخارجية عن تلقفها وإن كانت حواسنا الداخلية تتحسسها حين تتوفر بعض الشروط ، لقد «أحيطت» أورسول أثناء نومها بأفكار الدكتور وأفكار مينوريه لوفروه

(Minoret Levrault) المجرم. ورأت الأفعال التي تشكل هذه الأفكار جوهرها ذلك أن الزمان والمكان يتتبعان أثناء نومنا. ونجد أن هذه الأحداث تحمل الأزمة النهائية بعد أن حضرت لها وسببت الاضطرابات والبلبله والحوادث المفاجئة.

تشكل الصوفية الخفية أهم دوافع الكوميديا الانسانية فغالبا ما لجأ إليها الروائي في وضع العقدة والسمات ، فكم من الشخصيات قد ملكت مثل هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsau) وأورسول ميرووية (Ursule Mirouet) من قوى وملكات خارقة أو خضعت لتأثيراتها مثل الأم سيبو (Cibot) .

- ٣ -

الاستغلال الجمالي والرومنسي للكاثوليكية

ظهرت في شهر أيلول من العام ١٨٣١ رواية الكنيسة (l'Eglise) ضمن الروايات والحكايا الفلسفية بعد ان شهد بلزك في الأيام التي سبقت الاحتفالات بـ ١٤ و ١٥ شباط الجواهر الهائجة تسرق كنيسة سان جيرمــــــــــــان لوكسروا (Saint Germain l'Auxerrois) ونهب وتحرق قصر الاسقف. لقد شهد روائع الفن القديم تمتن وتبادا لقد رأى الأثاث الاستهلاكي (الذي يعود إلى ما قبل عام ١٥٠٠) والمطبوعات النادرة تلقى في نهر السين. لقد أثارته مظاهر الوحشية في احتفالات يومي إثنين وثلاثاء المرفأ «عيد المجانين الجديد» ووصفها في رسالته عن باريس التي نشرت في السارق (le Voieur) يوم ١٨ شباط : «هذا ما كانت عليه الكاثوليكية عام ١٨٣١.. ان لم تكن هذه الرؤيا الفظيعة السبب المؤثر في التقارب بين بلزك والكنيسة فن المؤكد انها تثبت النتيجة. وهذه النتيجة ألم يشر اليها في شهر أيلول من العام ١٨٣١ في رواية الكنيسة ؟ » هذا هو الوضع الدقيق الذي رأيت فيه اروع وأعظم وأصدق وأكثر الأفكار الانسانية عطاء» وكانت هذه الفكرة قد بلغت ابعادها في فكر المفكر. ويستدعينا هذا الأمر إلى استرجاع نظرية بلزك حول الأفكار فـ «الفكرة تستفلدنا أحياناً بولادتها

الطويلة وتضئنا ، تنمو وتثمر وتكبر مستقلة عنا بفضل الشباب وقد
 تربت بكل خبرات ومكتسبات الحياة الطويلة : وهي تجابه أشد
 النظرات فضولاً تجذبها دون ان تثير فيها أي ملل . فتفحصها يولد
 الإعجاب الذي تثيره المؤلفات التي أعد لها طويلاً لقد انفتحت كلمة
 «كنيسة» أمام عيون الطفل كما يفتح الألبوم الملون الذي تتضاعف في
 كل صفحة من صفحاته الروائع «فالكلمات تحيي في دماغنا بسمائها
 المخلوقات التي تمثلها وترمز إليها» ننظر إلى هذه الرموز وهي ترتفع
 الواحدة تلو الأخرى وتتلأ بالصور مفهوم الكاثوليكية. ذلك ان
 هونوري ما زال يحتفظ في مخيلته بالاحتفالات التي رافق والدته إليها .

ويذكر ترتيبه الشكر إبان الانتصارات الملكية في كاتدرائية
 نور ، ويتأثر بالاناشيد المقدسة ، ووجود الحبر الأعظم وتوهج حلة
 الكاهن فيسترجمها بكل ظلالها في العديد من وصفه. فغالباً ما كان
 هذا المراهق الذي يبلغ الرابعة عشرة من العمر يعود ليحلم وحيداً في
 ظل بناء حجري ضخم ويهيم في ظل جناح كنيسة بحثاً عن الرعشة
 المقدسة «وسط رهبة الصمت الفظيعة والروعة الدينية... وصوت
 الأناشيد الدينية المؤثر الذي يحركه جرس الكاتدرائية» لقد قرأ بلزاك
 في الرابعة عشرة من العمر «الرسائل البناءة» ويتهج خياله الصغير في
 اللحاق في الآباء المبعوثين في البراغواي وهم يتوغلون في الغابات العذراء
 لهداية المتوحشين. ويستمتع إلى ابنيه يؤكد رغم إلحاده ان «لا شيء
 يوازي الكنيسة الكاثوليكية سياسياً في حسن عملها من أجل تقدم
 الإنسانية والاتحاد العام في سبيل تحقيق عدالة متساوية لكافة الناس» .

وقد أتت النصيحة ثمارها فقد امتدح الكاتب الشاب في إحدى أولى مؤلفاته «تاريخ اليسوعيين بلا تحيز» في عام ١٨٢٤ نجح الآباء بناءة القرى النموذجية «الرسل والمشرعين».

«هل ظهر في العالم دليل أفضل لبرهان ان الدين المسيحي المطبق إذا طبق بامانة يقود الدولة إلى السعادة» هذا هو حجر الزاوية الذي بنى عليه المفكر نظامه السياسي الاجتماعي.

وهذه هي القاعدة الأولى التي وضعت عام ١٨٢٩ في غشاء الكاتب «اننا ندين لـ (Pater noster) بفنوننا وأصرحتنا وعلومنا والخير الأكبر حكوماتنا الحديثة...» ويمكن لهذه العبارة ان تشكل فكرة رواية الكنيسة حيث تعدد كل المؤلفات التي وضعها رجال الدين في العلوم والفنون والأدب والبر من أجل تقدم الإنسانية.

في كانون الثاني ١٨٣٢ حقق بلزاك خطوة حاسمة بانتسابه إلى حزب الشرعية الجديدة ونشر ضمن مجموعة من القطع الأدبية الزمردة ، (l'Emeraude) مقالاً عاطفياً حول رحيل شارل العاشر وعنوانه الرحيل «لقد أبحرت معه على السفينة الفنون الحزينة» ويتخذ كلمة الكاثوليكية التي غالباً ما كان العجوز المبعد يلام بها ، كل بعدها وتترين بكل حلاها : «الترف والفنون والفكر» كل هذه الأشياء الجميلة التي تصنع وطناً قوياً وعظيماً. فالملول الى البذخ هي أرستقراطية وملكوية بمجوهرها. ماذا يمكن للحكومة بورجوازية ان تعطي؟ فالملك الشرعي قادر على إنقاذ فرنسا فهو يملك امتياز السلطة الكبيرة التي تعطي المال «الضروري للتجارب التي لم تثر بعد

وغزوات الفكر البطيئة وإلهام العبقريّة» وتدور كافة هذه الآمال في رأس الكاتب الذي بدأ يعرف الشهرة. لقد بدت الكنيسة كالمملكة ملهمة الفنون وحامية لها وحاضنة للفنانين.

ونمثل الآن كلمة كنيسة «مجموعة» من الأفكار التي نهاجمه بلذة، وتنشر إحداها تيارها عليه- وفق نظريته- ذلك ان العمل يعزوه بالحصول على كرسي نائب. فيعد ترشيحه وينشر في المجلد (Le renouvateur) (٢٦ ايار و ٢ حزيران ١٨٣٢) جريدة الشرعية الجديدة نوعاً من البرنامج الانتخابي: ابحث حول وضع الحزب الملكي ننقل منها هذا المقطع: أن افضل مجتمع هو ذلك الذي يوفر الحيز للبروليتاريا ويقدم لهم الوسائل الضرورية للتعليم والتملك في نفس الوقت الذي يضغط فيه على التجاوزات المحتملة للقسم المعاني من الأمة في مواجهة القسم الميسور أو الثري.

«الا يشكل الدين أقوى وسائل الحكومة لدفع الشعب إلى القبول بالامة والعمل المستمر في الحياة؟ وأخيراً هل يمكن ان تقوم ديانة لا رموز لها ولا نشاط ديانة فكرية صرفة؟».

«تكن كافة العقائد الملكية في هاتين الفكرتين ضمناً، هاتان الفكرتان اللتان يمكن اختصارهما بالديانة الكاثوليكية والملكية الشرعية».

«أن الشرعية هذا النظام الموجود من أجل تحقيق سعادة الشعوب أكثر من هناء الملوك ناتج عن عدم استحالة حكم الشعب حين

تعترف الدولة بحقوق متساوية للمعدم والغني ، للجاهل ولذلك الذي يملك قوة فكرية .

«تملك الكاثوليكية سلطة على الاحداث ذلك أنه في الوقت الذي تعجز فيه الافكار الفلسفية عن قهر السرقة نجد ان صورة يسوع المسيح والسيدة العذراء رمزا التضحية الضرورية لبقاء المجتمعات تبقى مجموعات كاملة في دروب التعاسة وتدفعها إلى القبول بالفقر والعوز...» .

وهكذا يبدو الحزب الملكي عقلانيا من الناحية الفلسفية في عقيدته الأساسيتين : الله والملك . فهذان المبدأان قادران وحدهما على إبقاء القسم الجاهل من الأمة ضمن أطر حياتها الصابرة والمقاودة .

يقضي هذا التفسير للمسيحية بقسوته على مكانة الرحمة والحب الأخوي الذي أوصى بها حين نادى بحب الله . ويبرهن رجل الديالكتيك ان نظريات الحكم المطلق السياسي المأخوذة عن بونالد (Bonald) وجوزيف دومينر (Joseph de Maistre) تؤدي إلى توفير راحة الطبقات العاملة ورفع مستوى العائلة وتقديمها هذه العائلة التي تشكل الخلية الاجتماعية الأولى دون ان نعثر فيها على زبدة الحنو الإنجيلي .

يشكل طبيب الريف (١٨٣٣) بحثاً خيالياً عن التطبيقات العملية لهذه النظريات السياسية الاجتماعية في ميدان حكم وإدارة إحدى المقاطعات فتحسنها وتحببها اقتصادياً واخلاقياً . لقد جاءت

التائج رائعة بعد ان حطمت وقهرت كافة العراقيل مسبقاً. وفيما يلي موقف (Bénassis) طبيب الريف والمتحدث بلسان بلزك ومحقق هذه التحولات : «كنت أعتبر في السابق الديانة الكاثوليكية مجموعة من الآراء المسبقة والخرافات المستغلة ببراعة والتي يتوجب على الحضارة الذكية إنصافها وبت اليوم أعترف بضرورتها السياسية ومنفعتنا المعنوية وانفهم قدرتها عبر قيمة الكلمة التي تعبر عنها ذاتها. الديانة تعني الرابطة والعبادة أو بكلمة أخرى تشكل الديانة البيئة القوة الوحيدة القادرة على الربط بين الفئات الاجتماعية وإعطائها شكلاً دائماً. وأخيراً لقد بت اتشقى الطبيب الذي تسمح به الديانة جروح الحياة ، لقد احسست دون مناقشتها أنها تتوافق بشكل رائع مع اهواء سكان البحر المتوسط : ماذا يحدي التعليق على العبارة الأخيرة ! فلاحظه الوقائع والنتائج التاريخية والأحاسيس تكفي لتقرير الإلتحام بالكاثوليكية المعنوية. ماذا يحدي النقاش ؟ ماذا يحدي الانسياق خلف الماورائيات ؟ فالمدافع عن العقيدة النصرانية يتعرض للكنيسة في كاهن القرية (١٨٣٥) من أكثر نواحيها ايجابية وروعة : المنافع الأرضية والترقي المادي والنظام الاجتماعي. فالراعي بونيه (Bonnet) يطمح إلى تحقيق كافة هذه الأمور حين يحلم في دير سان سوليس (Saint Sulpice) بمهمته التبشيرية الجديدة ويصل إلى ضرورة اختيار بقعة مجهولة «ليبرهن فيها بتجربته ان الديانة الكاثوليكية هي القدرة الحضارية الوحيدة الحقيقية وهذا عبر منجزاتها الإنسانية» فيختار لذلك ضيعة منسية في أعالي الليموزين Haut Limousin

المونتينيكا (Montégnac) التي يعتبر سكانها من المتوحشين فيتوصل هذا الكاهن الريني البسيط بجهوده وعزمه على تحسين حالة الأرض البوار وأوضاع الناس المتخلفين. وتدل تجربة مونتينيكا (Montégnac) كتجربة فوريب (Voreppe) ان الديانة الكاثوليكية هي العامل الاجتماعي الأول وضابطة الأهواء الوحيدة. وغالباً ما كان بلزاك يستند إلى هذا التحديد الذي اوردته للمرة الأولى في طيبب الريف «الكاثوليكية هي نظام كامل لكبت الميول المنحرفة لدى الانسان» الأمر الذي يمكنها من التحول «إلى وسيلة صالحة للحكم» و«ضرورة سياسية» و«السلطة الوحيدة القادرة على محاكمة السلطات المدنية والسياسية» وفرض الطاعة الشرعية والقانونية على الجماهير.

واننا لتساءل هل يشير تأمل كاهن (Montégnac) مونتينيكا حين يتكلم عن الكنيسة-«التمثلة عبر أفعالها الإنسانية»-وقول يناسيس (Bénassis) : دون مناقشتها-أي الكنيسة-على التحفظ الذهني لدى بلزاك؟ هل كان يقصد القول بأن الحقائق العقدية لا تنسم بأية أهمية بنظره؟ والجواب هو بالطبع. ونحن نعرف ذلك. فهذه النصوص لا تحتاج إلى أي تعليق وهي تعكس فكرة الكاثوليكية التي تمثل نظاماً أخلاقياً واجتماعياً. فبادئها هي اساطير خصبة وغزيرة فالقربان المقدس مثلاً يمثل رابطة الأخوة والمشاركة الشاملة...

يضم العرض الكامل للنظام الكاثوليكي البلزاكي عدة فروق من الآراء. ونخطئ باتهام الكاتب بالجهل الديني نظراً لبعض الأخطاء

في التفاصيل عند تحليله القضايا الضميرية والطقوس الشعائرية تأمل مطولاً في المعطيات العقائدية الكاثوليكية الأساسية كما تبين عبارات عديدة. فقد ورد مثلاً في التعاليم الدينية الاجتماعية الكاثوليكية هي أكمل الديانات لكونها تندد بدراسة الأمور المفهومية فيها وتقبل بواسطة الكنيسة بالمكلمات الدينية القديمة التي ترمي التقرب من الله بصورة أوثق. ويشهد ما فعله المراهقة في أوائل لصالح الكاثوليكية. فالوحي مستمر في الكنيسة وجامد للملحدين». لقد رفض عن وعي سلطة الكنيسة المعلمة دون أن هذا في إبراز كل العظمة الكامنة فيها.

لقد خف بسرعة تصلب محافظته ولأن مع شعور الشفقة انفعه سان سيمون ولا منيه في قلبه إزاء الطبقات العاملة. ويملك بلزك كمثلهم سان بول (Saint Paul) و فينيلون (énélon) القدرة على التعاطف مع الآخرين فهم كهنة فنانون يؤمنون باله المستقبلية، فرجال الدين جانفيسه (Janvier) و (Bonnet) وشابرون (Chaperon) و بروه (Brossette) يجمعون بين مهامهم الأسقفية والمصالح الدينية ويمتلئ قلبهم حنواً وشفقة على الفقراء والبؤساء والمنبوذين من المجتمع ويشير بلزك إلى نفسه في الكتاب المقدس (e livre Mystique) حين يكتب في دوقه لاجيه (١٨٣٥) « حين جمل لامارتين ولا (Lamenais) ومونتلامبار (Montalembart) وغيرهم الكتاب الموهوبين وزينوا بالأشعار أفكار الكنيسة وجددوها وأثروا

كان هؤلاء الذين يفسدون الحكم يثيرون الشعور بمرارة الديانة . وقد بلغ به الأمر إلى الأسف في مقال نشره في المجلة الباريسية في ٢٥ أيلول ١٨٤٠ لرفض بلاط روما أخذ «الجرعة المقوية إكسبر» الديموقراطية الكاثوليكية الذي قدمه له لامنيه (Lamenais) . ذلك أنه بتكليفه «هذا الإصلاح» مع الظروف وباخراجه من صلب الكنيسة يجعله صحيحاً فينقذ بذلك العروش . وقد كتب في التعالم المسيحية الاجتماعية فصلاً سماه الرق «نبرص عبيداً أرقاء غير مسمين ، عبيداً أكثر تعاسة من الأرقاء أنفسهم ، أكثر بؤساً من العبد لدى الأتراك أكثر يأساً من العبد لدى القدامى أكثر شقاء من الزوج» أنهم عمال المصانع الذين يتركهم أرباب عملهم يفنون من الجوع والعناء وقد سبق للامنيه (Lamenais) أن تأثر بمصيرهم البائس وخط عام (١٨٣٨) نقداً عنيفاً في الرق الحديث (de l'esclavage moderne) وكان بنواستون دوشاتونوف (Benoiston de châteauneuf) وفيليرميه (Villarmé) العضوان في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية قد انتدبا من قبلها عام ١٨٣٢ لإجراء تحقيقات حول وضع العمال في الفبارك . وقد افتتح في نفس الوقت زميلها الفيكونت دوفيلنوف - بارغمون (Vicomte de villeneuve-Bargemont) الحركة الاجتماعية الكاثوليكية . وقد اتبع بلزك دربهم فأشار إلى احصائيات بنواستون (Benoiston) حول عدد اللقطاء من الأطفال وأعرب عن اعجابه بهذا العالم (فيزيولوجية الزواج ١٨٢٩) .

وباشر عام ١٨٤٢ بنشر الجزء الأول من الوجه الآخر للتاريخ المعاصر حيث أشار إلى بعض العلمانيين الأبرار الذين انتظموا في جمعية إحسان تحمل إسم «اخوة المواساة» وبدأوا بتضميد الجروح الاجتماعية في باريس بتقديمهم العون لكافة الطبقات من الفقراء والعمال. وقد عمد أحد الأخوة ألان (Alain) ليتمكن من دراسة حاجات العمال وتحسين شروط عيشهم المادية والمعنوية إلى العمل كرئيس للعمال في إحدى الفبارك التي أصيب عملها بعدوى العقائد الشيوعية وياتوا يحملون بتقويض المجتمع وحقن الأسياد فتمكن بهذه الوسيلة من الدخول إلى منزل مئة أو مئة وعشرين فقيراً الذين أضلهم البؤس قبل أن تنبهم الكتب الفاسدة. وقد كان لهذه «المؤسسة الوليدة» أمثالها المتعددة والحقيقة في الكنيسة الفرنسية في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد استفادت هذه المؤسسة في شروط قيامها وبداية عملها وإحسانها من المثل التي وفرتها جمعية القديس فنسان دو بول (Saint Vincent de Paul) التي أسسها فريدريك أوزانام (Frédéric Ozanam) وجمعية الإقتصاد الخيرية التي ترأسها الفيكونت أرمان دو مولون (Armand de Melun) فنحن نجد كافة أعمالهم المحسنة ومبادراتهم الطيبة وقد انجزتها جمعية إخوة المواساة فقد كان بلزاك يعرف مولون وقد التقى به كما يقول هذا الأخير في مذكراته في السهرات الأدبية التي كان ينظمها الأمير ميتشيرسكي (Metchersky) الأمير الشاعر الذي كان يعتبر قصره منتدى يلتقي فيه كافة رجال القلم.

إذن يمكن اعتبار الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (١٨٤٢-١٨٤٨) قصيدة الإحسان المسيحي وفصلاً من تاريخ الكنيسة في فرنسا. وتأخذ الرواية كل معناها في التعليقات التي توجهها السيدة لاشانيري (La Chanterie) رئيسة هذا المعهد ومن بعدها عميد الأخوة ألان (Alain) إلى غودفروا (Godefroid) إلى المتدرب الجديد أي الراهب طالب الخدمة كالإيمان العميق والتوكل التام على الله والخلود له ، «كن أداة طيعة في يد الله ، وانكر حب الذات ونجرد من كل غرور ومداينة في الذات» ، وأخيراً ممارسة الفقر حتى العوز عن قناعة وصرف كافة الأموال الشخصية وتوزيعها كصدقات. وقد وردت ضمن هذه التوصيات ضرورة التواضع والخضوع بعد الأمر بالصلاة. وفي الوقت الذي ينشر فيه الإخوة أعمالهم الحسنة يقدمون أنفسهم على أنهم وكلاء ومندوبي شخص مؤمن فصدقاتهم لا ترمي إلا إلى حب يسوع المسيح عبر أجسام أخوته المرضى ، فهذا الإحسان الفعال هو تعبير واضح عن الحب الداخلي والأبدى «فنحن نعتبر أن للشقاء ، والبؤس ، والألم والمعاناة والشرمها اختلفت أسبابها وتباينت الطبقات الاجتماعية التي تظهر فيها نفس الحقوق ، فالبائس منها اختلفت آراؤه أو إيمانه هو بائس ويتوجب علينا ألا ندفعه إلى التطلع إلى الكنيسة أمنا المقدسة إلا بعد إنقاذه من اليأس أو الجوع وعلينا أن نهديه بمثلنا وحنونا لا بأية طريقة أخرى فنحن نؤمن أن الله يسد خطانا في هذا السبيل وأن كل ضغط سيء». وقد ارتفعت السيدة شانيري (Chanterie)

إلى قمة الكمال ليس فقط بخضوعها وصبرها في شقائها بل بترفع عفوها عن جلادها «إنها صورة حية للتسامح».

لقد اعتاد إخوة المواساة على قراءة ومناقشة فصل من المحاكاة والتعق في ليعاشوا الألم ويعتادوا صعوبات العيش من أجل حب يسوع المسيح وتعتبر رسائل القديس بولس كتابهم الاجتماعي الوحيد «فن الضروري أن يستطلعوا بقلوبهم ويلموا بعقولهم بالمعنى الأزلي للرسالة حول الإحسان» قبل أن يباشروا ممارسة مهمتهم. وهكذا يضعنا بلزاك في قلب الفوطيكية المسيحية الصافية فهو يملك الفكرة التي تتيح له الفهم الكامل لمعنى الكاثوليكية أي الأخوة المسيحية صفة القديس بولس وتمثل كافة المسيحيين بالسيد المسيح وتشبههم به بواسطة العفو.

ونجد أن بلزاك يميز تماماً بين مفهومين جمع بينهما يسوع تحت اسم الحب فيما سماهما القديس بولس الإحسان. فن الإحسان أو من حب الله الذي يتيح لنا الاتحاد مع الرب ويعطي أعمالنا قيمة تقديرية يتولد حب المستقبل أو الإحسان إليه الذي يبرز من خلال أعمال الشفقة الروحية أو الدنيوية.. وتتخذ هذه الأعمال بعداً أبدياً بفضل النعمة الإلهية. وتولد بين الأشخاص الذين يتوحد بينهم الإحسان الكاثوليكي «شعوراً كبيراً مطلقاً للذيداً». يولد صداقة رائعة مرفعة عن كافة الصفائر وكل حساب ذميم. صداقة تكون رابطة الأسرة الصغيرة التي ترأسها السيدة لاشانتيري (La Chanterie) : فالرجال الخمسة يكونون لهذه السيدة حباً روحياً «تسمح به الديانة» ويشير

مثل هذا اليقين الحاس في النفوس فيملاً غودفروا (Godefroid) الشعور بالحياة وتتضاعف قواه عشرات المرات « فالحياة هي أن تعيش من أجل الآخرين وتعملون معاً كرجل واحد ، وتعمل وحدك من أجلهم جميعاً ! الحياة هي أن يكون الإحسان رائدك وأن يكون مثالك أجمل الصور التي أخذناها عن الفضائل الكاثوليكية . لقد اكتشف غودفروا هذه القوة العظيمة حين رغب بنكران ذاته وتناسيها فعوضته عن « تضحيته » وما يؤسف له فعلاً هو اغتيال الفردية منذ الثورة « للتجمع » « إحدى أهم القوى الاجتماعية » التي أحلت التجرد مكان الإحسان والرحمة . ونرى أن بلزاك يستغل كافة الفرص للتنديد بالبدل في سبيل الإنسانية . وردها إلى الخيلاء والزهو وهو يعتبر « ان الديانة المسيحية هي الوحيدة القادرة على توفير النظام » الضروري لبقاء أي تجمع سواء كان للإحسان أو لغيره . ولا يمكن لأي تجمع القيام على غير الشعور الديني الذي يروض الأفكار المتمردة والحسابات والجشع بكل أنواعه . »

يعبر مفهوم الكاثوليكية الواردة في الوجه الثاني للتاريخ المعاصر عن فضيلة البر الصافي التي ترينا في كل إنسان شقيقاً لنا وتدفعنا إلى حب الآخرين ومساعدتهم . وقد تعمق هذا المفهوم منذ عام ١٨٣١ منذ كتب بلزاك نهاية كاهن تور (Curé de Tours) وبدأ متشككاً حول مطلب الكنيسة الحقيقية من شمولية الإيمان والمدارك . « ألا تشكل المواطنة العالمية التي ترنو إليها روما المسيحية خطأ جسيماً ؟ صحيح أنه من الطبيعي الاعتقاد والإيمان بتحقيق مثل هذا الوهم

الجميل حول الاخوة بين الناس ، ولكن الآلة الانسانية لا تملأ للأسف هذه الأبعاد الإلهية الجميلة . فالنفوس الكبيرة القادرة على التحسس والمقتصرة على الرجال العظماء لا تتوفر قط للمواطن العاديين البسطاء ولا لأرباب العائلة . فأني عالم لاهوت لا يقب بشكل مطلق بالشمولية الفردية . ويبدو أن بلزاك لم يكن يعتقد في ذلك الوقت بإمكانية تحقيقها وحتى في حال اقتصرها على عدد ضئيل من الأشخاص في مختلف بلاد العالم . فهو لا يعتقد بقدر وحدة الإيمان على خلق أخوة شاملة لدى كافة الأشخاص الذين يؤمنون بنفس المذهب . ونجد أنه بعد أن بين تطور الشعور بالانتماء على الصعيد الطبيعي : العائلة والقبيلة والعشيرة والمدينة والطبقة والديانة في الوطن موثلها النهائي . فالانسانية والعالمية هي أفكار لا يتفهم إلا قادة وحدهم مثل بطرس الأكبر وإينوسان الثالث (Innocent III)

لم يتوقف فكر بلزاك منذ ذلك الحين عن تفحص الثروة التي تمثلها الكاثوليكية بالنسبة إليه . فقد اصطبغت الكوميديا الانسانية منذ عام ١٨٣١ حتى النهاية بالأجواء المسيحية . . وحين يهاجم أحبا الأبطال الكنيسة ويتعرض لها فإن الهدف يكون إتاحة الفرص لآخر بان يبرز ويبرر ويمدح الأعمال التي قامت بها .

هل نغالي باعتبار بلزاك أحد المدافعين عن العقيدة النصرانية ؟ وإلى أي حد يمكن اعتباره كذلك ؟ نلأقي الجواب هو التساهل بمسؤولية تحملها الكاتب إرادياً وغالباً ما صرح بها كما في الفتاة العانس مثلاً (La vieille fille) . لنفصل في الخلاف بين

أفكاره ومعتقداته المارتيانية وتعليماته ذات الطابع الكاثوليكي. إن بلزك كغيره من الكثيرين من علماء الفلسفة واللاهوت كان مقتنعاً أن هذه الإزدواجية لا تلطخ إيمانه ولا تنال منه ولا تضعف قط قوة موقفه ولا حاجته في الدفاع. بل كانت تزيد من نزاهة دفاعه برأيه. ويمكننا إذا شئنا أن نأسف لأفكاره هذه ولكن هذا لا يمنعا من اعتبارها واقعة يجب الأخذ بها. فهي توضح سبب تأليف بعض الروايات على الصعيد الأدبي وتبين إشراقية بلزك على الصعيد الأخلاقي والديني. وأنا لا أفاجأ قط حين سألتني بها بعد لحظات وقد تقمصت روح هنريت دو مورسوف (Henriette de Mortsau) الكاثوليكية المتصوفة كما تدخلت في روح الراوي في مجاهرته بالإيمان الكاثوليكي. وما زال النقاد بعيدين عن امتلاك كافة النقاط التي يتقدم ويتحلل بها العقل الذي لا يمكن تقديره وفق المعطيات العادية، الدلائل على عظمته وقدراته الكبيرة. فهذا العقل يمكن أن يمثل على خريطة مجسمة ترتفع فيها قمم جبلية تتعرض لها الواحدة بعد الأخرى دون تمهيدها. وموضع الخلاف هنا هو كاثوليكيته.

فلا علاقة لمشاهد من الحياة الخاصة، أو طيبب الريف أو الحظر أو بياتريكس أودوقة لانجيه ومجلس القدامى أو قصير بيروت أو الفتاة العانس أو كاهن القرية أو الموظفون أو الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (باستثناء ملاحظة صغيرة) أو للفلاحين أو غيرها من الروايات الأخرى بالاشراقية. فهي تمثل لوحة للعادات الارستقراطية والبورجوازية في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب. فهذه

القصص الخيالية والمقاطع من الحياة الواقعية كانت تثير أحكام المؤلف فيعبر عن آرائه ويؤيد ويدين. فتتخذ الفضائل والنقائص والأهواء والشوائب والعادات أشكالاً حية وفق النماذج المعاصرة. فدوقة لانجيه (Langeais) مثلاً تمثل رياء ومكر اللياقة في المجتمع المخملي الباريسي. ويمكن تطبيق الصيغة «هل تريدون أن تمنعوا عن سيدة من البلاط الملكي الطاولة المقدسة حين يطلب التقرب منها في عيد الفصح؟ على الممارسات الدينية وغيرها من قواعد الحياة الاجتماعية، هذه المحافظة الملائمة للحزب السياسي الذي يريد أن يحصل من الديانة على قاعدة لبقائه في السلطة. وصف هذه المغالاة والرياء لا يعني تأييدهما وغالباً ما ندد بهما بلزك وخصوصاً في فوبور سان جيرمن (دوقة لانجيه) فهو يسخر من السيدات المشهورات اللواتي نادراً ما يذهبن إلى الكنيسة في الوقت الذي يزين أحاديثهن بالعبارات المسيحية الجليدة العابقة بالسياسة». فهذه هي جهودهن الورعة، دراسة مختلفة للمرأة (Autre Etude de femme) .

يلزم من يود تقدير مفهوم الكاثوليكية بصورة صحيحة لدى بلزك التقيد بشرطين: لا بد من وضعه في عصره وعدم اعتباره وفق منطق المسيحي الحالي ثم أخذه ضمن الاطار الزمني مع مراعاة تطوره.

حين قرر بلزك الدفاع عن الكاثوليكية كان شاتوبريان وجوزيف دوميتير وبونالد ولاننيه وفرايسينو (Frayssinous) وبلانش (Ballartche) قد مهدوا الطريق. فتبني وسائلهم .

النصرانية في الإثبات في السنوات العشر الأخيرة بعد أن درسهم جيداً. وعندما رغب الكاهن جانففيه (Janvier) في هداية الأمر جينستا (Genestas) بين له أن الديانة الكاثوليكية تحافظ على «المنافع الأرضية التي تمسه مباشرة» (طبيب الريف) ويردد له أقوال المطران فرايسينو (Frayssinous) الذي يأسف للأخذ بالديانة ، بسبب روح العصر «من زاوية علاقاتها مع المصالح الانسانية» فهي تسهر على الحفاظ على الأموال ، وتستبعد الفوضى وتغذي الشعور بانكار الذات والتضحية لدى الفقير. أما فيما مضى الحجة المأخوذة من خصوبة الكنيسة في كافة الميادين من فنون وآداب وجمال مقدس فقد كان مأخوذاً به أيضاً في ذلك العصر. فقد استغله شاتوبريان وبلانش (Ballanche) ولا كوردير (Lacordaire) لأنه يتوافق مع الحساسية الرومنسية. ولا يحق لنا الانتقاد فهناك أناس يجذبهم إلى الدين الشعور بالجمال وقد كان عددهم كبيراً في الفترة الممتدة بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٠ ومن الخطأ انتقاد بلزاك والنيل منه وحده بسبب «كاثوليكيته الواجبة».

أضف أنه يجب علينا ألا نتجاهل التطور المستمر في أفكاره الدينية نحو المسيحية الجوهرية الصافية. كذلك لا يمكننا أن ننسى تمجيد الشعائر الدينية (الزنيق في الوادي ، وربة الجبال في المقاطعة) ونزاهة قيصر بيروتو وانقياده القوطيومي وتأييب ضمير فيرونيك غراسلين (Véronique Graslin) وتكفيرها القاسي واحساناتها الشعبية والتوبات المتعددة ومنها توبة الطيبين بيناسيس (Bénassis)

ومينوريه (Minoret) تسامح البارونة الورعة هولو (Hulot) مع زوجها الخائن. وهناك خصوصاً براعم البطولة الرائعة لدى إخوة المواساة. فحياتهم الصوفية عابقة بتيارات القداسة وغنية بالفضائل الإلهية وحي الإيمان والرجاء والمحبة. وما زالت النفوس ترتاح إلى يومنا هذا في الخلود إلى هذا المكان. كم تطور منذ عام ١٨٣٠ ! ان الوجه الآخر من التاريخ المعاصر هو نهاية رواية الكنيسة. فهنا كلمتان مخصصتان للكنيسة والرهبان الذين «يخدمون الفقراء» فقد اهتم الفكر ببيان تأثير الكنيسة على التاج الجمالي على مدى العصور. وهناك لا يهتم قط بالخارج بالترف المقدس والغنى الظاهر للعقيدة ملهمة العبقريات الفنية. فكل جهود المؤمنين التي تتجمع وتختبئ في السر الداخلي لتكمل جمال النفس والروح التي لا تطلع عليها سوى نظرات الله فيما تقوم دائرة الفقراء الأعضاء المعبدين في هيئة الكنيسة الصوفية بملء هذا الظلام بتفان أخوي يحمله ترفعه أكثر فعالية. لقد كان بلزك يتنصر للإيمان الذي سواه التواضع وطرقته التجارب فجاء ثمرة للصلاة والتأمل لا بد لاقتطافها من الجدارة القائمة على الكمال والدلوف على طريق الصليب المقدس الملكي.

ويعتبر عدد كبير من الأشخاص أن تصريح عام ١٨٤٢ الوارد في المقدمة. «أكتب على ضوء حقيقتين أزيلتين الديانة والملكية...» يتناول المفهوم الاجاملي للكاتوليكية الضيقة والدفاع عن المصالح الأرضية. ولا يمكن ألا يكون الأمر كذلك كما يقولون لأن الوجه الآخر للتاريخ المعاصر لم يظهر إلا عام ١٨٤٨ وبعد مضي ست

سنوات على المقدمة. وهذا التحليل خاطئ. فقد اعترف بلزاك في ١١ أيلول ١٨٤٦ إلى هيپوليت كاستيل (Hyppolite Castille) « انني أراجع منذ ست سنوات أمام العقبات الأدبية التي يصعب التغلب عليها » لإنهاء هذه الرواية. وحين ظهر المتدرب الجزء الثاني من الوجه الآخر أكدت ملاحظة أوردها المؤلف أنه بسدا بهذا « أن العمل قد بدئ في هذا المؤلف عام ١٨٤٠ » أي قبل عامين من وضع المقدمة ولا بد من العودة إلى أساطير الصفر (Zéro) ورقصة الحجرة (la danse des Pierres) والكنيسة هذه الروايات الثلاث التي شكلت بعد ربطها فيما بينها رواية يسوع المسيح في الفلاندر (Jesus Christ en Flandre) فديانة عام ١٨٤٢ لم تعد « السراج الصغير » ، الذي تتيح بالكاد شعلته المتهاكة للعجوز الصغيرة المقعدة ، لكنيسة عام ١٨٣٠ أن تتلو قداسها في كوخ كئيب. لقد أصبحت شعلة ملتهبة تحيط بهالة ضوئية شابة ملائكية الجمال تحرك بانجاء المستقبل حساماً طويلاً من اللهب لتشعل العالم بإحسانها. هذه هي الاسطورة التي كانت توافق كنيسة عام ١٨٤٢ التي جسدها أخوة المواساة.

تمثل الكاثوليكية التي وصفنا تطورها في فكر بلزاك جوهر العقيدة التي تقترب أكثر وأكثر من الامتالية الضرورية لصحة تمجيداته وتبريراته. ولا تغير الاخطاء شيئاً في تغيير هذا النظام. فقد كان الروائي يستعملها لأهداف فنية ولإعطاء مؤلفاته الطابع الواقعي.

«تكرس الكاثوليكية في كل هيئاتها نضال الحياة الكبير وصراع الجسد مع الروح والمادة مع السماء. فكل شيء في ديانتنا يرمي الى القضاء على خصم مستقبلا. انها الخاصة التي تتميز بها الكنيسة الكاثوليكية عن كافة الديانات القديمة. فعقيدتنا كما قلت في طيب الريف هي نظام كامل من قع الميول الفاسدة في النفس الانسانية. والسيدة مورسوف (Mortsau) هي رمز لهذا الكفاح المستمر. فلو لم تلفظ الشهوة أنفاسها الأخيرة لما أصبحت وجهاً حقيقياً ونموذجاً للكاثوليكية». ونتوقع أن يتحول هذا التحديد الى روح الأشخاص الموزعين بين الايمان بين حساب الأزلية وانطلاقات الأهواء وخصوصاً الغرامية منها. ولكننا نصاب بخيبة أمل. فنحن لا نجد في الكوميديا الانسانية هذا الشاب المليء بالحسوية والنشاط الذي وصفه بوسويه (Bossuet) في مــــــلح سان برنــــــار (Panégryrique de Saint Bernard) الذي يندفع في رغباته لكنه يعرف كيف يسيطر على حماسه باتصاله مع النعمة الالهية التي تلهبه بقوة خارقة ليتمكن من الترفع عن غواية الشهوة ؟ ولا ذلك المؤمن الذي وصفه بول بورجيه (Paul Bourget) في نزوات منتصف العمر (le démon du midi) هذا المسيحي العفيف الورع الذي تحبط طويلاً مع عقيدته قبل أن يستسلم لإغراء حب أثيم غرقت معه فيه كرامته كرعيم كاثوليكي ؟ إن كاثوليكية بلزاك هي ديانة الرجال الذين خابت آمالهم وخذعوا في أمانهم وهزمتهم الحياة انهم من العجز المرهقين المتعبين. فهؤلاء الذين يعودون الى الهداية

يهون الله ما تبقى من حياة مضطربة ، منهكة ذاوية . ان تجربتهم تدفعهم أكثر من أي باعث خارق الى هذا التبدل حين يرون أنفسهم على درب الانهيار ويشهدون قواهم تتخاذل في ظل القرف . فهم لا يملكون الخيار فالعالم لم يعد يؤثر فيهم ولا بد لهم من كتابة كلمة النهاية «والديانة الكاثوليكية أفضل من بني القلق ويقضي عليه» . هكذا يتحدث الراعي جانففيه (Janvier) الى الأمر جينيستاس (Genestas) مبرهنًا له كباسكال (Pascal) أنه يتوجب عليه أن يتحيز وأن يراهن .

«انتي أسألك ما الذي تخسره بالإيمان بهذه الحقائق ويجب جينيستاس (Genestas) لا شيء يذكر فيرد بلزاك . كم هي عظيمة الأشياء التي تخسرها بعدم إيمانك .» .

ويجب بلزاك وصف تطبيق القدم الكاثوليكي على الحضارة أنه مبدؤه الثاني في الخلق الأدبي . فييناسيس (Benassis) وفيرونيك (Véronique) وجراسلين (Graslin) يتحررون بهذه الوسيلة من التائب الداخلي الذي يتآكلهم بعد ارتكاب الخطأ . كم كانت مؤثرة رؤية العراك بين الجسد والروح لو أن المؤلف التزم ببرنامجه . فهو يراوغ لتجنب الصعوبة فنحن نجد لدى بيناسيس لا مبالاة مطلقة ازاء المبادئ المسيحية وخيبة أملها هي وحدها التي تعيدها الى الله ونرى لدى جراسلين (Graslin) البورجوازية الكبيرة التي تدعي الورع ، نجد أن الرياء الذي يجيده يخفي الجريمة . «لقد خبأت أهوائي في ظل المدايح» فتجنب بذلك أن تتيه في الفضيحة الرهيبة التي سببتها . فقد

جعلت من تاشرون (Tascheron) عشيقاً لها وهو عامل شاب يصفرها سناً، يقتل عجوزاً وهو يحاول سرقة تأمين المال الذي يضمن له فرصة الهرب مع عشيقته الى أميركا. ويبدو هنا أن الايمان لا يتعارض مع رغبات الجسد فالمرأة لن تعرف الندم الا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد عشر سنوات من وقوع الحادث. وتعجز فيرونيك (Véronique) رغم العقاب الاليم عن محو ذكرى الملمات الآتية من نفسها فندمها لكونها السبب في وفاة حبيبها يتقدم على شعورها بالإساءة الى الله. ولا بد من القول أن الكوميديا الانسانية «تكرس» انتصار الجسد على الايمان المخفق ولكنها تعوض عن ذلك بعرض شهد الندامة البناء والمؤثر في الحضارات..

ويختلف الأمر وفق بلزاك فيما يخص السيدة مورسوف (Mortsau) . فهي تجسد هذا الصراع المستمر «انها وجه حقيقي ونموذجي للمرأة المسيحية التي ترنو الى خيانة زوجها الفظ. فهنا تتخذ فضيلة الكاثوليكية الزجرية كل معناها باعتبار أن هذا الكائن الملائكي هو زنبقة الوادي التي لم تذوها رياح منتصف العمر بانفاسها القاسية والتي يقتلعها الموت في بهاتها الناصع .

غالباً ما وصف بلزاك في رواياته النفسانية الحالات النفسية التي تتسبب المرأة العسة: امرأة الثلاثين (La femme de trente ans) ، المرأة المهجورة (La femme abandonnée) الرسالة (Le message) جعبة القنابل (La Grenadière) السيدة فيرمياني

(Madame Firmiani) . ويضفي في هذه الروايات التحليل الدقيق والرقيق للأحاسيس التي تملأ فراغ حياة امرأة مهجورة ، وزوجة غير مفهومة السحر على هذه الأفاصيص المفعمة بالكآبة الخفيفة والمكتئبة بالذكريات التي تقضي أحياناً نعيمها على المראה واليأس . والجدير بالذكر أن الديانة لم تلعب أي دور في المأساة التي تفررت فيها سعادة السيدات بوزيون (Beauséant) ايقلومون (Aiglemont) والليدي براندون (Brandon) بل كانت الديانة مجهولة تماماً بسبب نوع من النسيان الهين الناتج عن مناورات العادات الاجتماعية . فهي لم تكن تملك أي دور في المأساة أو في دعم قلوب هؤلاء التعمسات اللواتي آلمهن الهجران والاختفاق . وقد أكملت زنبقة الوادي (Le Lys dans la vallée) سلسلة هذه الصور برسم المرأة الورعة التي خابت آمالها . لقد رغب بلزك في إعادة كتابة اللذة (Volupté) ١٨٣٤ للرد على مقال سافر لسانت بوف (Sainte Beuve) . حيث يبين البطلان أموري وفليكس دوفوندونس Amaury et Félix de Vandenesse أن الإنسان يعجز عن السيطرة على مشاعره بالحب الأفلاطوني ان لم تغمره المشاعر الدينية أو الايمان العميق الحي . ان بطللة اللذة (Volupté) السيدة وين دوكو (Mme de Couaën) تتعلق بتحفظ وحياء في صمتها المحصن فتمنع الشكوك من مرادتنا حول عزتها الشاحنة . أما بطللة الزنبق السيدة مورشوف (Mortsauv) فانها تتعرض للاغراءات علناً حتى أنه يمكننا القول أننا لا نجعل شيئاً من عزة نضالها فقد عرضت

علينا كافة هذه المراحل بكل دقائقها. شهدت هذه السيدة التسعة
المرهفة الاحساس التي تعذبها فظاظة زوجها المريض بخياله وعنفه ،
شعوراً ناعماً يملأها ويفرقها به بحب شاب معجب بها يخفف عنها
بتفانيه واخلاصه. ولا يمنعها عن الاستسلام له سوى ايمانها
بالمسيحية. ويمكن كل فن هذا القصصي في التحليل الدقيق للمشاعر
وحديث الورع المتكتم والمتعاقب حيث يبين الحنو التلقائي أو المنسحق
القلب أو المنقبض المتكش العذاب الداخلي ويدل عليه. ونلاحظ أن
لا قيمة للأحداث الخارجية فالخيال يعطي مادة شعرية. إذ أن العالم
كله يعلم أن حب عاشقين يحول الصحراء المقفرة الى عالم مليء
بالاحاسيس.

وتنقل الكاثوليكية هنا من الأخلاقية الاجتماعية الى الاخلاقية
الفردية، من حدود المذاهب الى حدود قضايا الضمير. فتحول
«الصغائر الى أمور عظيمة». ذلك أن ضميراً تقياً كضمير هنرييت
دومورسوف (Henriette de Mortsauf) يمكن أن يعتبر العبارة
أو الهمة أو الصمت أو الحركة أو المصافحة أو الابتسامة أو التنهيدة
أو الفكرة التي لا يعتبرها المجتمع خفة ، أخطاء جسيمة بناء
على قول المرشد اذا نمت عن نية واضحة أو رغبة آثمة غير مكبوحة.
فكل هذا يمكن أن يوفر للرفيق ، للفارس الدليل على الانتصار
المكتسب والمحقق على موجبات الايمان. وعلينا الا ندهش للوسائل
التي يعتمد عليها الغاوي باعتبار أن بلزك قد استغل كافة النظريات
النفسية والحيل الناتجة عن التجربة ومنها الورع الرومانسي الذي

ينجح مع سيدة تقية. فالعاشق يأخذ من الطقوس الكاثوليكية عبارات التعبد ومن الشعائر المقدسة صفاء ومواقف خانعة ومن الصلوات دعوات تحول عن معناها الصوفي لتخدم عشق الجسد. ويتخذ القسم طابعاً عميقاً مؤثراً مأخوذاً عن العقوبة الأبدية المفترضة. ويتدثر ببخور مسروق من الألوهية الخالدة، وتنال هذه العطور من عناد المتمسكين بها وقد لجأ فروست (Fraust) الى هذه الوسائل الملتوية لسحر فريسته.

تشكل الأزمة التي تعاني منها هنريت دومورسوف (Henriette de Mortsau) وكفاحها الذي تمسك به الحبكة الدرامية التي أعظمتها الكاثوليكية للروائي. فنحن جميعاً نعرف التروات التي استشفها كورناي (Corneille) من تعاقب العواطف التي أبدتها بولين (Pauline) ازاء بوليوكت (Polyeucte) لقد كان يسع بلزك بنقله هذا الوضع الى المجتمع المعاصر أن يجعل بقدرته على المراقبة مؤثرة مراحل المثل العاطفي والاضطرابات والتراعات الداخلية. وبما أنه كان يرغب بانتصار الايمان على الجسد كان يتوجب عليه أن يبرز ذلك بصورة أفضل عبر الاغراءات والاعجاب والنهوض والدعم الالهي. ولكنه عجز عن ذلك فالفكر الخارق كان يعوزه. فهو لا يمتلك مفهوم الخطيئة أو الشعور بالذنب أو النفور من الغرائز الجسدية أو الرجاسة. كذلك لم يتفهم القوة والصلابة التي يبثها في النفس العفو المستحق بالنضال والجهد. لقد اكتشف في تاريخ العادات والاخلاق نظرية عادية لقد تعاظمت الكاثوليكية

ورفعت من قدر الحب ونقته وهذبه وزيته بالحنو. لقد جعل منها «مملكة مثالية مليئة بالمشاعر النبيلة والأمور البسيطة العظيمة والشعر والأحاسيس الروحية والتضحية والأزهار الاخلاقية والتناغم الساحر وأبعدها عن الغفظة البذيئة حيث يذهب كائناتان يجمع بينهما ملاك ترفعه أجنحة اللذة». إن هذه التأملات مقتبسة من بياتريكس (Béatrix) ونحن نسمع صداها في فيزيولوجية الزواج (Physiologie du Mariage) والعشيق الكاذبة (la fausse maîtresse) معكرة المياه (La Rabouilleuse) وفي بعض المقالات. وهي تدعي أن الغزل واللطف قد استغلا العفة المسيحية لتنوع وتجميل ومضاعفة ملذات الحب واضفاء المساواة عليها. وأية ثروة تشكل هذه الكلمات بالنسبة لروائي، وكم هي كبيرة الامكانية التي يوفرها للعقدة وسواس الخطيئة «والثمره المحرمة». يستند هذا المفهوم الرومنسي على مبدأ مزيف وخاطئ: يعتبر أن الشعور الديني يرهف حساسية قواد المرأة ويشعل لذة سقوطها عبر اثاره تناقض المشاعر ذلك أن كافة مخاوفها وكل تردداتها يغرق في السعادة. «فالأمل بالغفو يجعلها عظيمة» وقد ذهب بلزاك الى حد اعتبار البروتستانتية وكأنها «موت الفن والحب» وهذا لأنه يتره المرأة عن وسواس الاخلاق. وهذه الأفكار هي أفكار وثنية يبرها أحياناً الضعف الملازم للنفوس الباردة التي تمارس الكاثوليكية التقليدية السطحية الروتينية أو الرياء الاجتماعي كدوقة لانجيه (La duchesse de Langeais) وكان يتوجب عليه أن

يعرف بعد أن اختار كمثال للأمانة الزوجية الكونتيسة دومورسوف (de Mortsauf) الورعة التقية التي تقوم بواجب الاعتراف بصورة متكررة أن الخطيئة وإن كانت فكرية لا تتعايش مع حب الله في قلب واحد. والاغراء الذي يصفه في حالته الحادة لا يمكن أن يدوم سنوات طويلة لأنه يعني العيش في توتر مستمر يقارب حالة الخطيئة المميتة.. وهذا أمر لا يقبل به أبداً. تخيلوا الوضع الذي يتوجب عليه إيجاد حلول له فكل ظروفه معروضة في رسالة هنرييت (Henriette) الى فيليكس (Félix) أعيدوا قراءتها. إن هنرييت تبلغ الثامنة والعشرين من العمر وفيليكس في الثانية والعشرين وهي متقززة من زوجها وهو ذو طبع مندفع وشهواني لا يكبح من جماحه أي رادع اخلاقي. وقد تلاقيا كثيراً خلال ثماني سنوات في عام ١٨١٥ وإلى عام ١٨٢٣ وحتى وفاة هنرييت. وهما يعيشان تحت سقف واحد ويتقاسمان ألفة بيت واحد خلال أشهر طويلة. كيف يسهل هذه المرأة ادعاء المسيحية حين تدركي لدى صديقها التهاب مشاعره باعترافها له باضطراب أحاسيسها وتشعل رغبته بلقاءات خاصة على ضوء القمر أو في ظل خميطة متواطئة؟ كذلك نجد أن أحاديثها لا تدور ولا تتناول إلا موضوعاً واحداً: روعة الحب الصادق وجمال التفاني والتضحية وغالباً ما يقاطعها هو باعترافاته فتكتفي هي بالاجابة عبر نصف الاعترافات والتنهدات الشاعرية وعبرات الأسف وغضب الغيرة. فالواعظة الجميلة تدعي المعرفة وتؤمن بعكس ما تعلمه لعشيقها حول الحب المقدس. ففي هذا الوضع مغالاة في الخيال

وبالتالي استبعادية جامعة فبلزك الذي كان يدعي اللجوء الى قاموس الحالات النفسية le dictionnaire des cas de conscience الذي كان مستعملاً من قبل الكهنة المسنين في عهده (الفندق الأحمر (l'Auberge rouge) لم يستطع الا الوقوع في الخطأ النفساني والفيزيولوجي... وهكذا نرى انه باستغلاله مأساة خاصة ناشئة عن المعتقدات الدينية قد تخلّى عن الجمال الأدبي وسقط في الرواية المسلسلة.

تستعرض هنريت مَورسوف (Henriette de Mortsau) حالانها النفسية بانتظام للمديرها كاهن لابرز العجوز. فييدي رغم «قسوته وتزمته» تسامحاً كبيراً فهو يسمح لها ليقينه أن بعد الحبيب يقتل الحبيبة ، بالاحتفاظ به بقربها شرط أن تحبه محبة الابن . ويدل هذا العذر على رقة الذممي المكار .

لقد نصب بلزك نفسه مرشداً فبدا أخرقاً رغم حسن نيته . ذلك أن المرشد والمعرف يبرزان كثيراً في الكوميديا الانسانية . كذلك يعتبر ضرباً في الخيال امكانية وجود انسان قائم قادر على تدبير مؤامرات ودسائس كتلك التي يدبرها كهنة فانتانون (Fantanon) (العائلة المزدوجة) (une double Famille) ، تروبيه (Troubert) (كاهن تور) (le Curé de Tours) ، كروشيه (أوجنيه غرانديه) (Eugenie Grandet) والقس هابير (Habert) بيريت (Pierrette) . ويدهشنا فعلاً أن تلجأ سيدة ذكية كالسيدة مورسوف بعد وفاة الكاهن العاقل والمتفهم دولابرج (de la Berge) الى الكاهن بيروتو التافه وتترك لها قيادة

روحها وإيجاد حل لمشاكلها وهو الذي يكتفي بالتأثر لحالها بدلاً من توبيخها وتأنيبها. ويبدو مسلكه أمام فراش الثابتة التي تعاني من سكرات الموت غريباً... فهي حين بلغت حافة النهاية انجرفت في هذيان شهواني وشدت اليها صديقها وصبت في أذنيه هذه الكلمات، كلمات طفلة صغيرة تطالب بالحصول على لعبتها.. «هل من المعقول أن أموت انا التي لم أتمتع بحياتي.. أريد أن أعيش.. أريد أن أركب الخيل بدوري.. أريد أن أعرف كل أشياء الحياة.. باريس، الأعياد، الملذات.. أريد أن أكون محبوبة.. سأمارس كل التروات كالليدي دودلي (Lady Dudley) (منافستها).. وحين رأى الكاهن التعس هذا المشهد جثا على ركبته وتطلع الى السماء بتضرع ليختلط نرتيله بهذيان العاشقة.

لقد تفاوتت المواقف من مشهد التراع الذي تخيله بلزاك. ونحن نعلم أن السيدة برني (Berny) وهذه سيدة ذواقه مجربة وحكيمة بآرائها قد انتقدته.. وإن كان بعض النقاد يعتبره من أجمل وأروع فصول الكتاب ويرونه رمزاً عظيماً وحقيقياً لحقيقتين متصارعتين الزوجة والعشيقة. أفلا يحيا الفن بالتناقض؟ لذا فإن النفوس الحساسة تتأثر ليأس هذه المرأة التي ناضلت طوال حياتها للحفاظ على فضيلتها وشرفها.. هذه المرأة التي تتخلى فجأة عن مبادئها المسيحية التي سندها طوال ثمانية عشر عاماً، تتخلى عنها فجأة حين تقف أمام الله وتؤكد أنها قد أخطأت خطأ فظيماً.. لقد حرص الروائي على اعلام القارئ مرتين أن هذه التصرفات هي تصرفات جنونية وأنها تشكل تعاقباً بين

الانقياد الالهي واليأس الدنيوي ، وأن أريج الأزهار قد أثر على أعصاب المنازعة. اذن الأزهار هي التي سببت هذيانها وهي ليست مسؤولة عما جرى.. فالشاعر السائدة على الأرض وأعياد الخصب ولسات المزروعات قدأنحملتأ بطيها وأيقظت في أعماقها مشاعر الحب السعيد التي تغفو فيها منذ عهد الشباب. أن هذه الحجج تافهة. ولا شك أن الروائي قد وعى هذه الحقيقة فلجأ ليقنعنا بصحة هذه الحالة النفسية الى مواعظ قسين وفرض علينا حكم طيب وعرض لنا رأيه الذي نعرفه: الا أن كل هذا لا يقنعنا البتة. فاعتراف هنريت دومورسوف (Henriette de Mortsau) لزوجها قبل لحظات من وفاتها بحبها الأفلاطوني لفيليكس ، وعلان فيرونيك غرالين (Veronique Gaslin) علاقاتها الآثمة بتباشرون (Tascheron) للكاهن خلال القداس تصدم الواقع واللياقة. وتقدم الكوميديا الانسانية المثل عن هذا النقص في التفهم للوقائع الروحية ..

ويقدم لنا استر غوبسيك (Esther Gobseck) باسمها الحربي «الطريدة» المثل النموذجي والغريب (روعة وبؤس العشيقات). فقد تمكنت هذه العاهرة اليهودية التي وضعها كاهن مزيف كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) في دير باريسي تربي فيه الشابات الارستقراطيات من أن تتقدم بقربانها الأول وتعلم في نفس الوقت أصول اللياقة والأدب لتصبح بعد تحولها عشيقة لوسيان دو روبومبريه (Lucien de Rubempré) السرية ولترفعه الى قمة

النجاح الاجتماعي والفرح وهي تحكم مثل نينون (Ninon)
 أو ماريون دولورم (Marion Delorme) أو سيدة من آل دوباري
 (Dubarry) . وينافس بلزاك أوجين سو (Eugène Sue)
 وبغولوبرون (Pigault Lebrun) وتبكي القارنات الشابات ويعتقدن
 أن هذه هي طبيعة الديانة الكاثوليكية ويعتبرن أن أفكار الحب
 الشهواني والزندقي ويظن أن الادعاءات والغنج تتوافق في القلب مع
 الخشوع حين تتقدم المتناولة فخورة بزینتها ويحلمها نحو المذبح . نحو
 خطيبها الرباني ، وسط المتأففات الصامتة التي تشعر بها حولها وقد
 غطت وجهها بمندليها الزنبي . ونحن لا ننتقد هذه اهتماماً بالأدب بقدر
 ما نعتبرها تحدياً للتفسير الصحيح والحقيقي والواقعي للمؤثر لحدثة شبه
 عادية : بساطة الايمان الذي يملأ قلب فتاة شابة . لقد كان الايمان
 المتولد عن الحدس والمشاعر ، والوقف على الطابع الفظة يرفض كل
 تحالف مع المنطق . وكان هذا يشكل الايمان الحقيقي العميق والوحيد
 بنظر بلزاك ، الايمان الساذج . وقد ظن أنه قد حققها لدى هذه
 العاهرة إيستر غوبسيك (Esther Gobseck) ذات الطبيعة العفوية
 التي لا تملك حسابات صغيرة .. فحديثها الذي ينال من المنطق
 يتحدى كافة المستحيلات الجسدية والاخلاقية .

ولنلاحظ أخيراً أن المعطيات الكاثوليكية لزنبقة الوادي
 (Lys dans la vallée) مصبغة بالأفكار المارتيئية التي تأخذ بها
 هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsau) . ويتوجب
 اجراء دراسة عميقة لهذه الازدواجية الدينية التي تنطوي على تنافر

مطلق. فلهذه السيدة رؤى واحساس داخلي وهي تملك قدرة خارقة على رؤية ما يجري في منطقة أخرى بشأن مصير من تحبهم فهي تسمع صوتاً ناعماً يفسر لها دون كلمات وبواسطة الاتصال الذهني النصائح التي يتوجب عليها تقديمها لهم. وهكذا تظهر الحالة الصوفية التي توصل الصلاة الى الملهمين وأصحاب الرؤى. وقد تمكنت مرتين في حياتها من دخول المعبد الالهي. كما نجد أن قصر حياتها الداخلية مزين ومرصع بالصور الأدبية وهي في نفس الوقت الذي يؤمن فيه الى حد اليقين بقدرتها على الرؤى تدفع معرفها الى رد هذه الوقائع الدافعة الى التدخل الالهي. وهي متحفظة الى أبعد الحدود مع مرشديها تخفي عنهم معتقداتها المارتيئية التي تبيح لها مثل هذه الخوارق العاطفية.

ويتوافق هذا الوضع مع وضع بلزاك تماماً. فهو يمنع من اعتبار البطلة مسيحية كاملة لذا نجد أن السؤال التالي يفرض نفسه علينا. الى أي حد يتيح هذا الوضع تأثير السر المقدس على نفسها؟ ان الزنيقة في الوادي (le Lys dans la vallée) يشكل نموذجاً كاملاً للنظام الديني الذي ينادي به المؤلف. أنه الكاثوليكية الشكلية والتقليدية التي نجد كمالها ونقاوتها في الرؤى المارتيئية التي تبث في الروح الرغبة في القيام بنشاط اجتماعي غيري أي ما يسميه في الفيلسوف المجهول « الصلاة الفعالة ». باختصار ان هذه الرؤية هي تحريف كامل لنظريته وان كانت هنرييت تمثل بصورة سيئة كفاح الروح ضد الجسد. إذا رغبنا في تقييم المنفعة الفنية التي يطبعها الروائي في الشعور

المسيحي لا بد من اجراء مقارنة بين الزنبقة والشهوة الحسية فهما تختلفان بأسلوبهما وسيكتهما. وسانت بوف الذي يملك معرفة عميقة بالمبادئ المسيحية قد سبر بفضول الأدب المقدس وجمع الأربع الصوفي لبعض آباء الكنيسة ، فقد كان ذكاؤه المنطلق يراهن على قدرته في اختلاس أسرار الضمائر بعد أن عانت روحه من أزمة دينية . ألم يوفّر له كل هذا القدرة على وصف العذاب الداخلي الذي يمزق المسيحي الذي يتجاذبه عبادة الشهوات والالتقياد لها . والذي ارتعش في مصيدة الجمال الشهواني حين يثيره النير الذي يفرضه عليه حبه الأفلاطوني لامرأة فيتصلب فيه القلب النائر على القوانين الإلهية ٩.

لم يعان بلزك قط مثل سانت بوف (Sainte Beuve) من عواصف الإيمان ولم يزهد التعاون مع آباء الكنيسة ومؤلفي الكتب المقدسة ولا الصهارة المقدسة ولا رباطة جأش النسك التي تثيرها حتى في العبادة التي لا فعالية لها . فأناية طبيعته الشهوانية قد أضعفت في كل رابطة جديدة فكرة التدنيس وهذا إن ملكها أبداً .

ولم يكن أي وهم ينال من رغبته ولنذكر كيف اندفع فيليكس في بداية الزنبق في الوادي (le Lys dans la vallée) وراء جنون الطباع التي تكشف له فجأة وقدمت لجمال السيدة مورسوف اجلالاً يدل على حيوانية رهيبة . كذلك يثير تحفظ أموري (Amaury) العميق والطويل وعذابه الداخلي الشفقة . كم يبدو سانت بوف رصيناً في اندفاع العواطف حيث تخور الرغبة السيئة . فهنا يجعل الفن الإغراءات

أكثر مكرراً. على عكس حاجة بلزاك التي تبدو مستهجنة أحياناً، فالأماسة تدور إذا تجرأنا القول بصورة سطحية وتعطي آثاراً سهلة. وهذا على عكس النظرة المتسللة التي يلاحق بها العالم النفساني دون أي استثناء التعرجات والاضطرابات والاغراءات ومواربات الاغراءات التي تلي الانطلاقات الغامضة الهاربة. فهو يدون الجروح الفظيعة التي تتركها المحركات الملتوية في هذه النفس الضعيفة التي تنال من جوهره الكريم بسبب التصرفات الانانية الطائشة وإن كانت غنية بالمعطاء والكرم. وهو لا يغفل عن أي استحواذ أو تسلط أو وسواس أو ضعف صغير أو سقوط كربه يتبعه مرارة أو قرف أو تحرقه القرارات المفتعلة أو أطيايف الضعف. انه يعمل بتسهل ولكنه يتقدم بخطى ثابتة. فهو بملاحظته الصبورة يوقفها كأني طيب عند ظهور أي دليل جديد.

تعتبر السيدة كوون (Couaen) الزنبقة الحقيقية بين البطلتين فالعار مها كان طفيفاً لا يدنس طهارة ندرتها.. فقد سما الإيمان الرصين بقلبها الى القمة البيضاء التي لا تصلها سوى صقور ارشانج (Archange). فقلقها الميء بالأحاسيس الانسانية لا يخرج قط من منطقة الأمومة وحيزها، وهي معطاء بلا حساب ولا يأس أفلا يشكل الصديق كل قيمتها؟ وبراءتها تمنعها من الشعور بالخطأ والتهور الذي ارتكبته بتكبير قلب شاب. فيما نرى أن السيدة مورسوف (Mortsau) تلهث وتنير إثر استراحة المداعبات الخفية وتتطلع باستمرار إلى هذا العزاء. فالمؤلف يخلق بطلته وفق مزاجه وإن كان

هذا لا يمنع أن وسيلة عمله تدل على جوهره هو. فهو يأخذ من أعماقه أبطالاً ساهمون في طبيعته وإن اضطروا إلى تطويع روحهم بمادة يأخذها من الوحي الإلهي. لقد عالج بلزاك وسانت بوف موضوعها وفق ميول وأهواء طباعها. وقد استحوذ أحدهما أكثر من الآخر على تفهم المنابع السرية. فلكانه عجز متخصص بارشاد النفوس فيحدد في روح اموري نقاط العفو الغامضة ثم وخط سيرها والاضطرابات التي تثيرها وهو يشير إلى توازن الإرادة المطرد الذي تسانده القوة العلوية والذي يستعيد شيئاً فشيئاً تواتر الفرائز العلوية الحيوي. ولا بد اننا كررنا في السابق أن راسين كان مثاله.

الأمر الذي أحاطه مؤلف بالشهوانية بالحساسية وصبغه بالحساسية في صفات اموري (Amaury) فشل مؤلف الزنبقة في سكبها للسيدة مورسوف (Mortsauv) التي تبقى سجيئة حاهادون أن تلتطف منها رهافة السكون الذي يمنحه العفو؛ وهذا يعني القضاء على النجدة الإلهية كما يبناه في دراسة هذه المرأة من الناحية النفسية. ويمكن التشابه الغريب لدى الكاتبين في خلطها في نفس ابطالها بين تأثير المارتينية والمسيحية الصرفة. فكل من هنرييت دو مورسوف (Henriette de Mortsauv) وأموري (Amaury) يؤكدا أن أخذها بتعاليم رجل الرغبة (l'homme de désir). إلا أننا نلاحظ أنه في الوقت الذي يسود لديه الإيمان الخاضع للكنيسة تولد لديها استقلالية في الفكر موافقة للأهواء التي تعذبها. وأخيراً نجد أن سانت بوف يفعل كيفية ممارسة السيدة كرون

Mme de Couaën لديها. فهل يمكننا رد هذا الى حياته ؟ أم الى خشيته من امتحان الكهنوت المقدس : أم لبراعة يبينها الفن ؟ لقد امتنع سانت بوف عن الاستعانة بأي مرشد في تسير هذه الصداقة العاشقة . وإننا لتساءل هل يناسب هذا الوصف أم لا العاطفة التي تملأ قلب السيدة ككون (Mme de Couaën) لأموري ؟ إلا أننا نجعل هذا حتى اللحظة الأخيرة . وإذا عللناه وفق رغبتنا فعلينا نحمل كافة المسؤوليات . وعلى العكس من هذا نجد أن بلزك يحمل مرشدي السيدة مورسوف (Mme de Mortsau) مسؤولية الوضع الغامض والشائك الذي يتخبط فيه قلبها ذلك أن أي قرار واعٍ كان سيضع حداً لهذه العلاقة . فيما نرى أن ليونة سانت بوف قد رفضت الأخذ بهذه الوسيلة التي استغلها جورج ساند (George Sand) وأوجين سو (Eugène Sue) ومؤلفو الروايات المسلسلة ومحبها . فقد كان المؤلف يفضل أن يعهد الى سرية المذبح بالآراء والنصائح التي يقدمها الراعي الحكيم الى نعاجه الضائعة لا يشهد على ذلك سوى الملائكة . وتؤكد لنا إحدى صفحات الشهوانية (Volupté) هذا الأمر . ذلك أن ما من أحد قدم رأياً أكثر اجلالاً لدور المرشدين المساعد والمعطاء .

إن نزاع السيدة ككون (Mme de Couaën) وهو مشهد رائع بعظمته يبرز الانسان في أعماق أعماقه ببساطة الكلمات ورموز الإشارات المقدسة . وهو يدل على صلابة المنازع الهادئة المضورة بقناعته بقرب تجرره . شاتوبريان لم يتمكن من بلوغ هذه النقطة المؤثرة وبلزك غلفها بالمناورات والاقنعة المسرحية .

ويتيح لنا فن سانت بوف وحياؤه أن نسود الظل الذي تحجبه
 بعناية روح البطلة المعذبة ، فهو يستغل الانقباض والانكماش ليزن
 الانفعال ويدخل في المأساة آثراً سريعة وغير متوقعة. ففي هذا
 الاحتفال العظيم الذي ستجد فيه مأساة شهوانية نهايتها يحرك المؤلف
 باحترام أشياء مربعة ويحيط صفات الكهنوت باجلال كبير. فجوسلين
 يتحدث ويتصرف بوصفه ممثلاً وبيروتو بوصفه مغفلاً اما اموري
 فيبدو كاهناً حقيقياً. خانعاً لله الذي امر بمواساة الخاطئ المعذب
 النادم. وهكذا تمنحي الذكريات المؤثرة وتبعد الحبابة الضارة ،
 وتظهر قوة الوقائع الروحية اصولها المهيبة وتحيط بطاقة خارقة الكاهن
 الذي يتجلي بايمانه أمام هذه المنازعة التي تطلع إليها في الماضي
 برغبات غير صافية وقد انطفأت كل شهواته إلى الأبد وملاؤه الشعور
 بالندم. وتجبرنا العبارات المقدسة التي يتلفظ بها وهو يتحسس باصابعه
 أعضاء الحواس ويمسحها بالزيت المقدس إلى قطع معانيها. ويعمد
 سانت بوف الى تفسيرها وتعليلها ويتبناها ليشعر بعذاب الأنا
 الداخلية. ويستغل إلى أبعد الحدود مجال القدسية فيتحول اهتمامنا إلى
 معرفة نيته ، وينكشف فجأة «الستار» الذي كانت تغلف به هذه
 المسيحية قلبها وتخفيه حتى عن صديقها فنكتشف بغتة بالأموج التي
 تعصف بالأعماق دون أن نحمد صفحة بحيرة ايرلندا هذه الصورة التي
 كان يرمز بها أموري الى عظمة السيدة كوين (de Couaën) ابنة
 ايرين (Erin) الخضراء.

يدل تقعر اسلوب بلزاك ويريمه الصاحب الذي صبح بها

أوصافه لتزاع السيدتين مورسوف (Mortsau) وفيرونيك غراسلين (Veronique Graslin) على القصور والرعونة بالمقارنة مع لوحة سانت بوف الصافية الندية. فقد عجز كاتبنا عن رؤية الجمال البعيد عن العواطف. فقد عزلت عنه عبقرته أضواء الحب الأبدي. ولم يكشف بريقها إلا في الوجه الآخر للتاريخ المعاصر (l'envers de l'histoire contemporaine) آخر رواياته. والسؤال الآن بأية قدرة تملك سانت بوف (Sainte Beuve) الرؤيا المخالفة ؟ لقد أفرغت وطهرت موهبته في الشهوة الحسية عمله من بذاءة وتشويه الرومنسية التي تكمد الغاية المسيحية في زنبقة الوادي (Lys dans la vallée) .

وإذا نظرنا الى الحياة الكاثوليكية الصرفة ، العابقة بكل متطلباتها وأعماقها في الروايتين فاننا نلاحظ أن سانت بوف (Sainte Beuve) هو الذي يفرضها في قلب الحدث .. انه هو المنفذ الحقيقي الذي يكن فنه في الأسرار الخبأة ، وشبه الملونة والذي يبجل العقيدة . فبلازك يلهث وراء الأشكال التقليدية المعروفة وينظر الى الأمور من الخارج ليوضح فكرته واسلوبه .

* * *

ومها كان الأمر فقد وضع بلازك الواقعية في خدمة الافكار الكاثوليكية . وتحسس جماها الشاعر ي وقد نافس في البداية شاتوبريان (Chateaubriand) ولامرتين (Lamartine) في وصف المظاهر

والزخارف الخارجية. وعلينا أن نتذكر لوحة صلاة المساء في كلوشغورد (Clochegourde) ولكنه كان بالدرجة الأولى معلم الرواية الذي كان البعض يسميه الرواية النصرانية. الرواية المثبتة للأفكار. بعد أن كان هذا النوع الأدبي غارقاً في الإبهام محتقناً بغبار بعض المؤلفين الكثيبين المملين الذين كانت سطحياتهم تنشر رثابة على روعة إيمانهم فيثيرون القرف. طيب الريف وكاهن القرية والوجه الآخر للتاريخ المعاصر كانت غارات جريئة في السماء المقفرة. وبهذه المحاولات أبعد الوحي الرومنسي الباحث باستمرار عن الروعة المسيحية تملق العهود القديمة المستهلك. وقد وجدت روحها الأدبية عبر الأشكال والزخارف اليومية والعادات المعاصرة حتى تلك السائدة في صفوف الطبقات الشعبية. فقد لقيت فيها مشاكل تتطلب الحل، مشاكل أكثر حيوية وإثارة من تفاهة (René). فقد أدخلت الكاثوليكية في ميدان الإصلاح الاجتماعي والاحسان. لقد تعرض لها بلزاك قبل بورجييه (Bourget) وباريس (Barrès) وبازين (Bazin) وبومان (Baumann) وبيغي (Péguy) وبوردو (Bordeaux) وموريك (Mauriac) وبرنانوس (Bernanos).

ولا يمكن اعتبار مؤلفاته الكاثوليكية نافهة بكاملها فهي تعطيه بنظر المؤمنين عظمة لا يمكن حظرها أو النيل منها فهي تستمر في تحقيق الأهداف التي رمى إليها أي التأثير على النفوس وهو تأثير يريح الجماهير ويتيح تقدمها الأخلاقي. لقد كان بلزاك يستخلص من الحياة الانسانية القوانين الكبيرة التي تسير ويبرهن بالاحداث أن الكائنات

تعرض كالحقيقات تماماً إلى أقسى التجارب كلما ابتعدت عن الوصايا العشر وخرجت عنها. ففي هذه الوصايا يمكن سر البطولة وكنها. فنحن نراه يتحول إلى فضائل لدى بيناسيس (Bénassis) وفيرونيك غراسلين (Véronique Graslin) والسيدة لاشانيري (Lachanterie) ورفاقها وقبصر بيروتو (César Birotteau) والقاضي بوبينو (Popinot) والماركيز ايسبارد (d'Espard) وبورجا حامل الماء (Bourgeat) وكاتب العدل شينيل (Chesnel) والطبيب ميرويه (Mirouët) وبيريت لورين (Pirrette) وأورسول ميرويه والسيدة هوشون (Hochon) ومارغريت كلايس (Marguerite Claës) وأوجيني غرانديه (Eugénie Grandet) ووالدتها والفلاحة العجوز والدة الأطفال اللقطاء (طبيب الريف) إلخ... ويرد بين مؤلفات بلزاك كتاب سمو المسيحية في لغز الألم وهو كتاب يمكن تصوير غلافه على طريقة الغلاف القديم لطبيب الريف أي بصورة تمثل المسيح وقد حمل صليبه. فكل هؤلاء المسيحيين يرتكبون على أرض البؤس الواجب مؤاساته والتجارب التي لا بد من الخضوع لها ولا يغرقون في المشاهد الخارقة فصلب المسيح وارتفاعه إلى السماء هما حقيقتان واقعتان. ويقول بلزاك ان المرء يشعر بتحسن عند معايشة هؤلاء الناس، الرمز الحي للحقيقة الأزلية التي يتوجب على كل كاتب عاقل أن يرد بلادنا إليها. ويمكن القول أن بلزاك لم يخطئ فيما خص الكاثوليكية

فقد دلت الأحداث على صدق ذرائعه التجريبية التي تبناها عدد كبير من المقتندين به.

وكان أحد محاكيه نبياً فقد يحل بارييه دورفيلي (Barbey d'Aurevilly) في مقدمة «الأفكار والحكم» (١٨٥٤) حول الديانة والسياسة المقتتطفة من «أورال الماس» أي الملهة الانسانية بعد تصنيفها بالمدح الرائع عبقرية بلزك القائمة على مفهوم النظام والوحدة والحقيقة .. فقد اعطى جواباً رائعاً للأفكار التي أساءت طويلاً فهم أخلاقية بلزك ومؤلفاته . ولا بد لهذه الأفكار المسبقة والأوامر أن تزول . فبلزك المؤمن الكاثوليكي المطلق بأفكاره ككل مفكر يتسمي إلى هذه المدرسة السلطوية التي لا نلقاها إلا عند ارتقائنا إلى مستوى معين في كافة العلوم وفي كافة المؤلفات الانسانية . إن الكاثوليكية لا تحتاج إلى أحد إلا أنها ستعتبر بلزك يوماً أحد كتابها وأكثرهم إخلاصاً ووفاء ، فهو ينهي كافة القضايا كما كانت الكاثوليكية لتنهيا .

- ٤ -

الافكار السياسية

يضع بلزاك على نفس المستوى من التطور التاريخي
«الكاثوليكية والملكية، هذان المبدأان التوأمان» كما يقول في المقدمة.
لقد كان يؤيد الشرعية أي الحكم المطلق ويعارض الملكية الدستورية.
لقد أمضى حياته كرجل وكاتب (١٨٣٠-١٨٥٠) في ظل حكم
لويس فيليب وحافظ على ازدهاره للملكية نموذجاً إذا لم أتمكن من
العيش في ظل الملكية المطلقة فاني أفضل الجمهورية على هذه
الحكومات الحقيرة الهجنة التي تفتقر إلى روح المبادرة والمبادئ
والأسس والتي تثير كافة الأهواء دون الاستفادة من أي منها وتحيل
أمة بكاملها إلى العجز لعجزها». لقد كان يعتبر الملك استمراراً
للسلطة القوية المحركة للتقدم والحكم بين الطبقات في مصالحها
المتناقضة والمتباينة فهو الوحيد القادر على جمع الابتزاز وكبح
الاختلاس فهو حامي العدالة. السلطة هي القوة. لذا كان بلزاك
يرفض الاقتراع العام «فن يقترح يناقش ولا وجود للسلطة في ظل
النقاش فالجماهير لا تكسب بالمناقشات الفردية» والبروليتاريا هم
قاصرو الأمة ويتوجب عليهم البقاء تحت الوصاية...، وهذه حقيقة
واقعية وضرورية. فهناك تناقض في الكنه والجوهر بين الجماهير والقانون
الذي غالباً ما يتناقض مع مصالح الفرد. علماً ان الجمعية الوطنية

ستأذن هذا الفرد على حساب القانون فتكابد المصلحة العامة من ذلك. ان السلطة لطبيعتها القمعية تحتاج إلى تركيز كبير لتقاوم بقوة ثابتة الحركة الشعبية. لقد كان بلزك يعتبر البرلمانية امراً مضرراً وقد انتقدها بشدة فالجمعية العامة تناقش بدلاً من العمل. لذا لا بد من ان يكون القانون والسلطة من صنعة شخص واحد اصف ان لامسؤولية الوزراء الفعالة تثير طموح السطحيين.

المساواة هي وهم لا يرتكز قط على طبيعة الأشياء. وهو يخالف نظام التفوق الاجتماعي من تفوق فكري وسياسي وثروات: كالفن والسلطة والمال وغيرها أو بكلمة أخرى المبدأ، الوسيلة والغاية، إلا أنه من الضروري ان يكون للشعب وكلاؤه لتقرير الضريبة: الموافقة عليها أو رفضها وأن يتمكن الأذكيا من النخبة الذين يملكون إرادة قوية الانبثاق من بين الجماهير وان يمتلكوا الوسائل الكفيلة بالاتاحة لهم باكتساب اعداد جيد وبلوغ الدرجات العليا من المجتمع والسلطة. ولا بد من التمييز بين «الحرية المطلقة» و «الحرية المحددة والمميزة» فالأولى سراب طوباوي والثانية تشكل واقعاً ناجحاً. الديانة وحدها تستطيع توفير التوازن بين السلطة القصوى والجماهير العاملة المتأللة بابقاء الأولى ضمن حدود العدالة وأمر الثانية بالخضوع وفرض الرحمة على الأغنياء. يجب استبدال الفردية المتولدة عن الثورة بتقديس العائلة. الخلية الاجتماعية الحقيقية. ويرفض بلزك حرية الصحافة ويتحسر على النبالة وحق البكورية وتوزيع الأملاك بالعدل والقسطاس بين الابناء ويحتج بعنف على القانون المدني.

هذه هي باختصار نظريات بلزاك السياسية وقد تولدت هذه الأفكار عن التعاليم التي غرّفها من مؤلفات جوزيف دومير (Joseph de Maistre) وبونالد (Bonald) وهذان النسران المفكران اللذان اتخذهما استاذين له «مختاراً» وفي وقت مبكر. وقد كتب في نهاية حزيران ١٨٣٠ إلى صديقه سلمي كارو (Zulma Carraud) يقول: «لقد تأملت مطولاً في بناء المجتمعات. وأنا لا افكر منذ اليوم مع هوبس (Hobbes) ومونتسكيو (Montesquieu) وميرابو (Mirabeau) ونابليون (Napoléon) وجان جاك روسو (J.J. Rousseau) ولوك (Locke) وريشليو (Richelieu) ...» وكان يقول: «إذا كان الفكر السياسي يتطلع إلى تحقيق راحة الجماهير فإن الحكم المطلق أو أكبر تركيز ممكن للسلطة مها كان اسمه هو أفضل وسيلة لبلوغ هذا الهدف الإجتماعي (الرحيل ١٨٣٢). ولا تتوافق هذه الأفكار السياسية تماماً مع نظرية الملكية الفرنسية التقليدية فقد أدخل بعض السمات القيصرية في وصفه لرجل الدولة ورئيسها ونجد هذه الأفكار معروضة بشكل واضح في طبيب الريف (Le médecin de Campagne) على لسان الطبيب بيناسيس (Bénassis) وفي كاهن القرية (Le curé de Village) والوجه الآخر للتاريخ المعاصر... وتوطد هذه المعتقدات وتوضحها بعض الروايات والمقالات والرسائل الأخرى...

لقد تحققت توقعات بلزاك السياسية في نقاط عديدة: سقوط الملكية تموز وارتقاء الديمقراطية والإشتراكية والشيوعية. وكان يعتبر

هذه الأحداث نتيجة للامبالاة البورجوازية الأنانية ورغبتها بالانزواء السريع على حساب العدالة الاجتماعية وتغاضي الحكومة وعجزها عن رؤية سخط البروليتاريا. كما فضح «البؤس الفظيع الذي تقوم عليه البورجوازية الباريسية» فالملهاة الانسانية مليئة بصور النبلاء الذين لا يستحقون لقبهم والبورجوازية الدنيئة الخسيسة والكهنة الدساسين المتآمرين والمستهوين. ولا يمكن اعتبار هذه الصور دليلاً على عدم صدق صاحبها السياسي.

غالباً ما يتردد قول (Taïne) (في نهاية دراسته عن بلزاك)
الوارد في بحثه الجليل عن النقد والتاريخ بان بلزاك « هو سان سيمون
الشعب » ويمكننا ان نجد في الدراسة الأدبية والفلسفية للكوميديا
الانسانية التي وضعها مارسيل باريير (Marcel Barrière) مقارنة بين
مذكراتي (مؤلف مذكرات تاريخية أو أدبية) القرن السابع عشر
ورومني القرن التاسع عشر مصور العادات « لقد كان كلاهما
بالمصداق لنقائص وتجاوزات السلطة كانا قاسيين لا يرحمان مثل دانت
(Dante) وفي نفس الوقت ساخرين مثل موليير (Molière) :
لقد قاما بنفس الدور كمنصفين... فقد أدت سخريه بلزاك
وسان سيمون من نقائص وتجاوزات عصرهما الى نفس النتيجة التي بلغتها
احكام ناسيت (Tacite) على الحكام في روما القديمة .

فهل يعني هذا أنه يتوجب علينا ان نتبع اقوال فكتور هيغو
(Victor Hugo) في الكلمة التأنيبية التي ألقاها أمام قبر بلزاك
ونصنف هذا الأخير « في مرتبة الكتبة الثوريين » ؟ لقد لقيت هذه الفكرة

صداها «الانتماء الإجتماعي الكبير يدوي عبر المهارة الإنسانية (La Comédie humaine) فؤلفها يشير إلى الخفايا والاجهزة والقوة السرية والكواليس والمصالح السائدة في عصره» فارتقاء الطبقة البورجوازية بتطورها الصناعي والتجاري الرهيب إلى السلطة وحركة الأرستوقراطية نحو البورجوازية المنتصرة، وتحول طبقة اجتماعية بسبب أخرى متولدة عن ظروف معيشية مختلفة وقيام طبقة جديدة قلبت أشكال الحياة القديمة وادخلت معاييرها هي في مختلف الميادين وفق ماتكبه السيدة ماري بور (Marie Bor) في بلزك يواجه بلزك (Balzac contre Balzac) في كراس زهرة النسرين (Les cahiers de l'Eglantine). ونحن نستمع في الاب غوريو (le Père Goriot) كيف يتهم المحكوم عليه بالاعدام فوترين (Vautrin) على الجمال الاجتماعي ويلقن الشاب أوجين دوراستينياك (Eugène de Rastignac) «الثورة على الموافقات الإنسانية وشرط النجاح الأساسي هو الترفع عن القوانين» التي لا تصل أية مادة منها إلى العينية ولا بد من ازدياد الناس واستغلالهم كوسيلة لبلوغ المآرب. لا بد من البحث عن اللغات التي يمكن تجاوز شبكات القانون عبرها ويوافق بلونديه (Blondet) الرأي بقوله ان القوانين هي نسيج العنكبوت الذي تتجاوزها الذبابات الكبيرة وتقع فيه الصغيرة منها (la maison Nucingen) انهم المستغلون ورجال الأعمال مثل تيليه (Tillet) وفيون (Finot) وأصحاب البنوك مثل (Nucingen) نوسينجين

والمرابين مثل غوبسيك (Gobseck) . وتتضاءل كل الاعتبارات والقواعد حين يفهم راستينيكا ويستوعب امثولة فوترين (Vautrin) : فقد رأى العالم على حقيقته وشهد القوانين والاخلاق عاجزة أمام الاغنياء ورأى في الثروة منطق القوي المطلق ، و l'ultima ration mundi) وهكذا بدأ يحول الحب إلى وسيلة للثراء وانهارت أوهامه حول الشرف والاستقامة أمام بريق الذهب والترف الذي يوفره . ويصرخ (Rubempré) روبومبريه ريب فوترين (Vautrin) المتكرر بثوب الكاهن كارلوس هيريرا (Carlos Herrera) بعد ان اغتاله «الذهب وبأي ثمن» . ويتداعى وسواس الضمير أمام الكبح الذهبي ، المعبود المغوي الذي يغري كل الطامعين الموهين وكل طالبي اللذة (الايهام الضائعة Illusions perdues) . وهم كثيرون في الكوميديا الانسانية (la Comédie humaine) فالمال ينشر سلطانه على جماعة من المتلهسين الباحثين عن الثروة . وكم وقع من المآسي العائلية بسبب الميراث الجاذب للأنظار ، والوارثات المرغوبات ، وتنافس المصالح النقدية والفساد والرشوة ! فما من رواية الا وتعكس الأهواء المرتشبة وجنون التملك الذي يتجاوز القانون والفضيلة في سبيل التلذذ بالعيش وهذا في كافة الأصوات . فالألب غوريو (Goriot) يصرخ في نزاعة «المال يوفر كل شيء حتى عاطفة البنوة» فقد اكتشف أن الباعث الحقيقي لحب بناته له هو رغبتهن بالاستحواذ على ملايين ابين : فقد قيمن مشاعرهن بالمال ، هذا المال الذي يؤدي إلى قيام

مجاهدة بين دلفين (Delphine) وأناستازي (Anastasie) منافسة تجعلهن أشبه بالضباع. فسلطان المال المطلق يسود ويحكم كافة الأهواء ويشوه عادات الفضيلة والشرف ويحل مكان العقل في تسيير المجتمع : « الذكاء هو الرافعة التي تحرك العالم والمال هو نقطة ارتكاز هذه الرافعة » .

وإذا رغبتنا بالإطلاع على دور المصارف والمرايين في ظل عودة الملكية وحكم لويس فيليب (Louis Philippe) فان اوجيني غراندييه (Eugenie Grandet) وآل نوسينجين (la maison Nucingen) وقبصر بيرونو (César Birotteau) تظهر لنا فساد آل نوسينجين (Nucingen) وكيلر (Keller) وتيليه (Tillet) وتواطؤهم السياسي المضر. ويمثل كل من غوبسيك (Gobseck) والأب غراندييه الشغف بالذهب هذا الشغف الذي يلقي ظلاله على الحس الأخلاقي ويطمسه ويخمد كافة المشاعر العظيمة. وقد كرس له بلزاك رواية ماركاديه (Marcadet) التي تحمل اسم البطل الرئيسي وهو سارق تلتف حوله عصاة من النصابين والمحتالين والمرايين والمقامرين ومخربي المجتمع .

هل يمكن اعتبار بلزاك لوصفه الوجه الآخر من الحضارة والسياسة وممارسات أصحاب المصارف الكبرى التي تؤدي إلى إفلاس الآخرين ، والشخصيات الهامة والقراصنة الذين يحظون غالباً بالغطاء القانوني اللازم لهم ، هل يمكن اعتباره مخرباً يهدم النظام والمجتمع ؟

ان بلزك بوصفه رساماً للعادات ومؤرخاً لجيله يصف كافة أشكال التجاوزات وإساءة استعمال الحق ويندد بها بوصفه قاضياً منصفاً ويقدم لها العلاج بوصفه طبيباً اجتماعياً. فهذا اختلاف النظام فان رجال المال الباحثين عن الربح طماعون إلى درجة لا تمنعهم من قهر ضحيّتهم. ولم يخطئ الروائي بوصف الوسائل التي يعتمدونها في السرقة والاختلاس فهو يقوم بمهمة تطهير سياسي واجتماعي. فمن يرفض أن يكون ثورياً على طريقة بلزك؟ فالكشف عن التجاوزات في كافة المبادئ هو الشرط الأول لإصلاحها. لقد كان لتسلطية الأثرياء ممثلة عبر المغامر تيليه (Tillet). وقد عهد بلزك إلى زوجته اوجيني دوغرانفيل (Eugenie de Granville) ابنة قاضي كبير وأحد نبلاء فرنسا مهمة وصف أفعال وتصرفات زوجها «تبدو لي بعض الاعتيالات الواقعة في العراء أعمال احسان بالمقارنة مع بعض التركيبات المالية» بنت حواء (Une fille d'Eve) لقد كان بلزك يؤمن ان الحكم المطلق قادر وحده على حماية الشعب الذي يعتبره المستفيدون من الأموال العامة والخاصة ضحية سهلة ولقمة سافقة .

وفيما يلي نهاية آل نوسينجين (la Maison Nucingen) لقد تاحت عملتنا إفلاس إحتيالي للمصرفي نوسينجين جمع ثروة كبيرة قامها على خراب عدد كبير من الناس الذين جمعوا ثرواتهم بالعمل لحاد المهرق. فكان يكسب الرساميل بالمضاربات الخبيثة ويتمكن من تهرب من الوقوع تحت طائلة القانون مما يدفع بلونديه (Blondet)

إلى المطالبة بالعودة إلى السلطة المطلقة التي تقمع كافة المؤسسات المتعارضة مع روحية القانون. نعم الاستبداد ينقذ الشعوب بنجدته للعدالة. فلا وجه آخر لقانون العفو. ذلك ان الملك (الدستوري) القادر على العفو عن المفسد الاحتياطي لا يعيد شيئاً إلى الضحية المنهوبة. الشرعية تقتل المجتمع الحديث. فهذه الشرعية قد اخرجت اورغون (Orgon) من منزله الا ان الحاكم المطلق يفسخ العقد الذي يجرّد الضحية من كل أموالها ويعطيها للمحتال. ويعيد إلى اورغون (Orgon) ثروته ويلي الخائن في غياهب السجن.

* * *

هل حافظ بلزاك بثبات وحتى النهاية على آرائه حول الملكية؟ ينقل الكسندر ويل (Alexandre Weill) في مذكراته حواراً جرى على مائدته بين بلزاك واوجين سو (Eugène Sue) وهنري هين (Henri Heine) في صيف عام ١٨٤٧. حيث عرض بلزاك على الضيوف مبادئه المعادية للجمهورية والمعادية للاشتراكية والمعادية للشوعية. ولكن هذا لم يمنعه ان يكتب في ٢٠ نيسان ١٨٤٨ في السجال (Debats) رسالة تعتبر رأيه المجهر حول العقيدة السياسية. وتشكل رداً على النوادي التي اخطرتة رسمياً بوجوب الخضور وإيضاح موقفه. « منذ ١٧٨٩ وحتى عام ١٨٤٨ عمدت فرنسا واذا شتّم باريس إلى تعديل دستور حكوماتها مرة كل خمسة عشر عاماً. الم يحن الوقت لإيجاد شكل جديد أو امبراطورية أو نفوذ ثابت في سبيل حماية املاكنا

وتجارتنا وقيمنا وعظمتنا أي كل القيم التي تعتر بها فرنسا؟ أريد أن تكون الجمهورية الجديدة قادرة وحكيمة لأننا نحتاج الى حكومة توقع عقداً لفترة تزيد على خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً ! هذه هي رغبتى وهي تساوي كافة عقائد الايمان».

وقد جرت انتخابات الجمعية التأسيسية في ٢٩ نيسان ولم يحصل بلزك الا على عشرين صوتاً وقد كتب بهذا الخصوص إلى السيدة هانسكا في ٣٠ نيسان: «لقد قضت آرائى حول السلطة التي ابغيتها قوية حتى الاستبدادية على حظي بالحصول على مقعد في الجمعية كما ان رسالتى التي وجهتها لم توفر لي أي صوت في صفوف البورجوازية الخرقاء اللاهثة. وهكذا عرفت أنني لن أفوز في هذه الجمعية التي عينوا فيها احد القوالين واسمه بيرانجييه (Béranger) وخمسة عمال ! انها للأساة» باختصار يمكن القول ان بلزك لم يعدل افكاره السياسية واخذه بالشكل الجمهوري للحكومة كان مؤقتاً فقد انضم إلى المعارضة لتطلعه إلى عهد أفضل.

ويمكن القول وفق العبارة التي انهى بها الكسندر ويل (Alexandre Weill) ان بلزك كان يرى الحل في جمهورية يحكمها الملكيون كما يظهر في المقارنة بين النصوص فالعبارات التي رثا فيها بلزك رحيل شارل العاشر (Charles X) إلى المنفى (الرحيل 1832 le départ) ونهاية الملكية الشرعية مطابقة تماماً . لتلك التي أعلن عبرها انضواءه إلى الجمهورية اذا رغبت في حماية وتشجيع «كل ما يبنى أمة عظيمة ومتقدمة». والفن والفنانين والتجارة التي تحيا بالتعامل بين الناس والفخر والملكية والثروات المكتسبة.

- ٥ -

الأخلاقية والنفوذ

«لم يحن وقت التجرد بالنسبة للحكم علي» هذا ما كتبه بلزاك عام ١٨٤٢ في مقدمة الكوميديا الإنسانية (l'Avant propos de la Comédie humaine) وغالباً ما كان يشكو من «عدم فهم وتقدير أعماله» نعم لقد حصل هذا في فرنسا لا في الخارج حيث كانوا يحملون موهبته كما يقول سانت بوف (Sainte Beuve) ويمكننا أن نطلع على التفاصيل في لوحة مارسيل بوترون (Marcel Bouteron) المكرسة لإجلال بلزاك . وقد كان الروائي موضع احترام وعناية خاصة في إيطاليا وروسيا والنمسا وبولونيا والمانيا وهنغاريا وهذا دليل على تأثير رواياته العميق ليس فقط على الأفكار بل على العادات عبر تغلغلها فيها . فقد كانوا يقلدون أفعال وحركات أبطاله ليحسوا شعورهم ويعيشوا مغامراتهم . كذلك علينا ألا ننسى بأي عمق هوت النساء الفرنسيات من شابات وبورجوازيات ونبيلات كاتبهن وانهلن عليه بالآلاف الرسائل . فالنساء هن اللواتي بنين نجاح بلزاك وحققته فقد وجدن فيه صديقاً حميماً ومواسياً . الأمر الذي أخذه عليه بعنف النقاد الكاثوليك مثل بون مارتان (Pontmartin) وكارو (Caro) وبعض الكاتيبين الأردأ الذين يفتقرون إلى الذكاء والليبرالي لارمينيه (Lermnier) ومؤخرآ

أندريه لوبروتون (André Lebretton) .
 رد بذاك على هذه الانتقادات وقد تأثر بها عام ١٨٤٢ في
 مقدمة الكوميديا الانسانية
 (L'Avant propos de la Comédie humaine) بعد أن أخذ
 عليه الكشف عن الخزايا السرية والرياء الاجتماعي وتعريتها وأغضبت
 جرأته هؤلاء المستفيدين من اخفاء ضعفهم وفسقهم خلف التقيد
 بالأعراف السائدة . مما دفعه إلى الدفاع عن نفسه بحماس وبراعة في
 رده على إيبوليت كاستيل (Hippolyte Castille) المعجب
 بموهبة بذاك رغم أنه يعيب عليه كثرة الفاسقين الذين يفسدون عليه
 عالمه . ويمكن اختصار الحجج التي تقدم بها بذاك بالعبارة التالية
 « هل يؤخذ علي كثرة الفاسدين على الأرض ؟ السيد الحاكم وحده هو
 القادر على تمييز الطيبين من الأشرار والفصل بين النعاج والماعز » . إذن
 يمكن القول أن بذاك أخلاقي لأنه يدفع قارئه إلى التفكير والتأمل .
 « فان وجد أمرؤ أثناء قراءته للملهة الانسانية
 (La Comédie humaine) أن آل لوستو (les Lousteau)
 ولوسيان دوروبومبريه (Lucien de Rubempré) لا يستحقون اللوم
 فهو يدين نفسه . فن لا يفضل أن يقوم بدور بيروتو
 (Birotteau) الأمين والتشبه بم . ديسبار (M. d'Espard) بطل
 الخطر (l'interdiction) والتصرف على غرار طبيب الريف
 (le medecin de Campagne) والتوبة مثل السيدة
 غزالين (Mme Graslin) والاتصاف بسماة القاضي بوبينو

(Popinot) والعمل مثل دافيد مهبشار (David Séchard) وآل دارتيه (les d'Arthez) بدلاً من اللهات وراء الثروة ومطاردتها كالحبشاء والمحتالين. أي بكلمة أخرى الاقتداء بالمناذج الطيبة والفاضلة المزروعة في الملهة الانسانية بنسبة أكبر مما توفر فيه في العالم الحقيقي. ملك بلزك القدرة على إعلان الحقيقة حول وضع العادات ومهاجمة الأغنياء والنافذين.

لقد أخذ على بلزك الانسياق في وصف البشاعة الأخلاقية ولكننا يمكن أن نضع مقابل المخلوقات التعسة الكريمة صوراً جعلها الحب البنوي والتفاني الزوجي والإحسان. ويفترض الحكم المنصف على أخلاقية الملهة الانسانية (La Comédie humaine) توفر فكر قادر على شمول هذه الملحمة الضخمة الأبعاد وتحويل هذا الادراك للتجمهر الانساني الذي يخضع فيه البعض إلى التواطؤ الغامض بين مختلف القوى الحيوانية ويناضل فيه البعض الآخر بنجاح ضد الشهوات إلى مبادئ ماورائية.

ندد في الماضي بأذية الفتاة ذات العيون الذهبية (La fille aux yeux d'or) فن يتجراً وينكر أن الانسانية الساقطة لا تعرض اليوم مثلها في جريدة المحاكم؟ روبرومبريه (Rubempré) هو اليوم قيص ذهبي. من ينكر أن الحظر (l'interdiction) وقداش الملحد (la messe de l'Athée) وقصر بيروتو (César Birotteau) وطبيب الريف (Le médecin de Campagne) وبييريت (Pierrette) والوجه الآخر للتاريخ المعاصر

(l'Envers de l'histoire contemporaine) لا تقدم أفضل ذاتنا وترفع روحنا إلى قمة الخير في أجواء روحانية؟ ليس هناك سوقية وخساسة وابتذال فقط في الملهاة الإنسانية (la Comédie humaine) ، وليست «قمة الشيء» رغم كل نعوت

الكونت أرمان دوبون مارتين (Comte Armand de Pontmartin) لها . فهي كمثل الحياة توفر الصالح والطالح . وترك لكل فرد حرية اختيار رفيقه . ذلك أنه في مرحلة من مراحل العيش تدفعك الموجبات إلى الاختلاط بمختلف الفئات وتقضي الفضيلة على التمسك بالأمور التي تؤمن بخيراتها فهذا هو الصراع بين الجسد والروح الذي وافق عليه السيد المسيح . ونحن نتوجه هنا إلى الأفكار المثقفة التي تعتبر أن لا وجود للجمال إلا في ظل الحقيقة وأن الرياء والتلق وتفاهة المصطلحات لا توفر المناخ الصالح لتحقيق الاحترام . فالجمال الجدير بهذا الاسم لا يمكن أن يستند إلى الأحكام المسبقة .

لا بد من الاعتباط فقد دقت ساعة التجرد التي انتظرها بلزك طويلاً . فعول مؤلفاته تتجمع اليوم الفطن وباعثها ابراز ما تحويه من انسانية وازلية وحبوية وروعة فنية .

لقد مضى العهد الذي كانت تعتبر فيه الكوميديا الانسانية مصنفاً ماجناً . وبات يسود الاعتقاد بأن أفضل ميزاته هو تقديم روايات ثالمية غير روايات الحب هذا الهوى الذي كان يشكل حتى عهده روح القصص . وقد رغب بلزك كما بينا أن يطبعها كلها ويكل أنواع . فأعطى بذلك مادة غنية وخصبة لخلقته .

يعتبر بلزاك أبو الواقعية وقد برهن أن للواقع قيمة جمالية وأخلاقية وقد تابع هؤلاء الذين أتوا بعده مثل فلوير (Flaubert) وموبسان (Maupassant) وغونكور (Goncourt) ودوديه (Daudet) بأخذ نماذجهم من العالم الذي يحيط بهم من خلال تجاربهم الشخصية مع الاحتفاظ بابتكارهم. ويمتد هذا النفوذ بعيداً ويفزو العالم الثقافي وقد خصص م.أ. ركورتوس (M.E.R. Curtius) فصلاً كاملاً من كتابه «بلزاك» ليبين هذا.

ولا يسمح لنا بتجاهل رائد التبحر في بلزاك الفيكونت سبوليرش دولوفونجول (Spoellerch de Lovenjoul) الذي جمع بحاس ما يمكن تسميته بوثائق ومحفوظات بلزاك ، هذه الثروة من المستندات التي وهبها إلى معهد فرنسا (Institut de France) . ويعتبر مؤلفه تاريخ مؤلفات بلزاك (Histoire des œuvres de Balzac) مجموعة من المعلومات التي يستحيل على أي معجب ببلزاك أو مؤرخ أدبي الاستغناء عنها.

لقد وجد بلزاك في الولايات المتحدة معجبين كثر تعلّقوا بوسائله التقنية وقدموا دراسات قيمة أدّت إلى معرفة أفضل بفن ذي مصادر غير منتظرة.

وإذا أردنا تقديم دراسة شاملة فعلينا ألا نترك جانباً تأثير بلزاك على الأفكار السياسية والاجتماعية في بداية القرن العشرين . لقد اعتبره . پول بورجييه (Paul Bourget) استمراراً لبونالد (Bonald)

وجوزيف دو ميتر (Joseph de Maistre) فيما عرف بعض الكتبة
الاشتراكيين من مؤلفاته عوامل تجديد وتقديم اجتماعي.

ألا يدل هذا التلاقي في الأفكار المتناقضة ان الملهة الانسانية
هي أولاً عالم صغير ينقل بعظمته وتنوعه صورة الانسانية الحقيقية
والنابضة بالحياة؟ لذا يخلب لب كل قرائه بهذا الفن القريب من
السحر فيؤخذون ليس فقط بالكاتب الذي يحول الى قصائد، البؤس
والفرح - بؤسنا وفرحنا نحن - بل بالانسان ويكون له مشاعر الصداقة
والاعتراف بالجميل رغم أخطائه.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

صدر حديثاً

في سلسلة اعلام الفكر العربي

رامبو	كانط	فرانز فانون
اوسكار وايلد	هوغو	راسل
شتاينبيك	غوته	البيير كامو
برنارد شو	دستوفسكي	ماركوز
غرامشي	لوركا	غيفارا
ارون	لوكاش	هيدجر
توماس مان	غوركي	ماركس
ادغار الاين بو	فيبر	فرويد
ريثان	روزا لكسمبورغ	لبنش
سبينوزا	جويس	النجار
دور كيم	داووين	ديكارت
فلوير	تورغنيف	هيجل
فورييه	طاغور	سارتر
بيرون	ماياكوفسكي	الندريه مالرو
سرفانتس	اندره جيد	كافكا
بيراندللو	فوكنر	بوشكين
سان سيمون	غورغول	بريخت
مالارميه	اودريل	بسميت
تروتسكي	بودون	اراغون
لورنس	بودلير	ملازيتي
	الفاول فرانس	ميكيافيلي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بنية مرج الكارثون - ساقية الخبز

ت : ٣١٢٩٥٦ - بوقيا - موكيالي بيروت

ص ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

لبنانية



الش